المنهج المفيد

في بناء الإيمان والعقيدة

تأليف

إسماعيل المجذوب

طبع بموافقة وزارة الإعلام رقم/ ١٠٠٦٥١ تاريخ ٧/ ١/ ٢٠٠٩

الطبعة الثالثة

الفهرس

المقدمة... ٧

الفصل الأول تعريف علم العقيدة الإسلامية- وخصائصها – إضاءات علمية

علم العقيدة الإسلامية وخصائصها ١١

إضاءات علمية: الأولى: الإسلام دين المعرفة والبرهان الثانية: اهتمام الإسلام بالجانب العقلي.. ١٣

الثالثة: بيان وسائل العلم والمعرفة.. ١٤

الرابعة: الإلهام و الرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم.............................. ١٤

الخامسة: إيماننا بالغيب يعتمد على المنهج العلمي............................. ١٥

السادسة : لا مستند في الغيب إلا الوحي ١٦

الفصل الثاني الإيمان مُجْمَلاً ومفصلاً

الإيمان مُجْمَلاً ١٧

تفصيل أركان الإيمان.. ١٧

الركن الأول الإيمان بالله تعالى وحده، وفيه ثلاث مسائل ١٧

المسألة الأولى : الإيمان بالله فطرة وبديهة ١٧

المسألة الثانية : البرهان والدليل العقلي ركيزة الإيمان ١٩

المسألة الثالثة : معرفة صفات الله تعالى وفيها ثلاثة أبحاث ٢٠

البحث الأول : معرفة صفات الله تعالى ولها طريقان ٢١

الطريق الأول لمعرفة صفات الله تعالى التفكير في مخلوقات الله ٢١

ضرورة ارتباط تفكيرنا بحقائق العلم المعاصر.. ٢٢

الطريق الثاني لمعرفة صفات الله تعالى الوحيُ الإلهيُّ ٢٦

البحث الثاني أُسُسُ معرفةِ صفات الله تعالى ٢٦

البحث الثالث الإيمان بما فُصِّلَ في القرآن والسنة من صفات الله تعالى ٢٩

وحدانية الله تعالى ، الله تعالى هو الإله ولا إله سواه ٣٠

وحدانية الله تعالى في ضياء القرآن ٣١

الشرك بالله ليس له أساس علمي ٣٢

الشرك قولٌ باطل وتصورٌ غير صحيح - الإله لا يُتَّخَذُ اتخاذاً ٣٣

الله فعال لما يريد وهو على كل شيء قدير ٣٤

الله خالق كل شيء ولا خالق غيره ٣٤

الله الخالق وللعباد الكسب ... اختيارنا في الأمور التكليفية من البديهيات ٣٥

الرد على من يدعي عدم اختيار العبد ٣٦

الله العليم الحكيم ٣٧

وهو الحكيم في خلقه ٣٧

وهو الحكيم في أمرِهِ ونهيه ، وفي تشريعِهِ ٣٨

الله هو الغني الحميد ٣٩

الله هو الحي القيوم ٤٠
الله هو الغفور الرحيم ٤١
الله السميع البصير - ٤٢
من صفات الله تعالى الكلام - الله تعالى هو الأول والآخر - الله ليس كمثله شيء ٤٣
مجمل الإيمان بجميع صفات الله تعالى والعناية بالجانب القلبي من الإيمان ٤٤
ضرورة الإيمان بالجانب القلبي والسلوكي ٤٥
الإيمان بأن محمداً ﷺ رسول الله - من دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ - معجزة القرآن الكريم ..٤٦
وجوه من إعجاز القرآن - مناسبة الإعجاز العلمي لعصرنا أكثر ٤٧
الإعجاز العلمي في جانبين ٤٧
الركن الثاني الإيمان بالملائكة ٤٩
بعض وظائف الملائكة ٤٩
الركن الثالث الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ٥٢
لا يُقبل الإيمانُ بالله تعالى إلا مع الإيمان بجميع الرسل ٥٢
دين الأنبياء واحد لا يختلف في أمور العقيدة ولا في الأوامر والنواهي الأساسية ٥٣
محمدٌ ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده ٥٤
نبينا محمد ﷺ بَشَّرَ به الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام ٥٥
رسالة نبينا محمد ﷺ عامة لجميع البشر ٥٦
شريعته ﷺ ناسخة لما خالفها من الشرائع السابقة ٥٧
عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام من المعاصي ٥٧
لا عصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٥٩
معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام ٦٠
الركن الرابع الإيمان بالكتب السماوية ٦١
القرآن الكريم تكفل الله تعالى بحفظه ٦٢
الركن الخامس الإيمان باليوم الآخر ٦٣
اليوم الآخر من مظاهر حكمة الله تعالى ٦٣
وقت يوم القيامة لا يعلمه إلا الله تعالى ٦٤
حياة البرزخ نعيماً أو عذاباً ٦٤
فتنة القبر (البرزخ ٦٥
حياة الشهداء ٦٦
شهداء في غير الجهاد ٦٧
يوم القيامة يحيي الله الموتى ويبعث من في القبور ٦٧
بعض ما يكون في يوم القيامة - الكروب وشدة الأهوال.......................... ٦٨
الناجون من أهوال يوم القيامة ٦٩
الشفاعة العظمى ٧١
للنبي ﷺ شفاعات أخرى ٧٢

شفاعاتٌ في الآخرة لغير نبينا ﷺ ٧٢
الحساب والميزان وأخذ العباد كتبهم ٧٣
شهادات في يوم القيامة ٧٤
حوض نبينا محمد ﷺ – وبشارة عظيمة نرجو الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.............. ٧٥
المرور على الصراط، وأولُ الأمم مروراً ٧٦
من يدخلون الجنة بغير حساب ٧٧
نار جهنم ليست كنار الدنيا وعذاب أهلها متفاوت ٧٧
عذاب الكافرين في النار دائم لا ينتهي ٧٧
أهل النار يُعادي بعضُهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض ٧٨
عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار ٧٩
أهل الجنة خالدون، ومنها لا يخرجون ٧٩
أعظم نعم الجنة رؤية الله تعالى ورضاه ٨٠
رؤية المؤمنين ربهم لا تكون إلا في الآخرة ٨٠
الركن السادس الإيمان بالقدر ٨٢
قَدَر الله تعالى لا يتعارض مع ما أُعطِيَ الإنسانُ من الاختيار ٨٣
الإنسان مُخَيَّرٌ أمْ مُسَيَّر ؟ ٨٣
أنواع المقدَّرات بالنسبة لاختيار العبد ٨٣
الله تعالى أراد للعبد الاختيار ولكن الله تعالى لا يرضى بمعصية العبد ٨٥
مِنْ أساسيات الإيمان الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ ٨٦
أمور الدين تثبت بالسنة التي صح نقلها كما تثبت بالقرآن ٨٦
يجب الإيمان بالصحيح غير المتواتر من السنة كما يجب الإيمان بمتواتر السنة. ٨٦
مما جاء به ﷺ من السمعيات أنه لا يموت إنسان إلا بأجله ٨٧
ومما جاء به ﷺ مضاعفة الحسنات ٨٧
الذنوب صغائر وكبائر ٨٨
الله تعالى لا يغفر أن يُشرَك به إلا بالتوبة ٨٩
ذنوب عصاة المؤمنين راجعٌ أمرها لمشيئة الله تعالى ٨٩
المسلم لا يكفر بارتكاب الكبائر ٩٠
من مقتضيات الإيمان الاعتراف بفضل أهل البيت رضي الله عنهم والصحابة رضي الله عنهم ومحبتهم ٩١
فضل السابقين الأولين.. ٩٢
فضل أهل بيعة الرضوان وأهل بدر – خير قرون هذه الأمة الصحابة رضي الله عنهم ٩٣
لا يبلغ أحد درجة الصحابة رضي الله عنهم.. ٩٣

الفصل الثالث ميزان الإيمان

ضرورة الحرص على قوّة الإيمان........ .... ٩٦
ميزان الإيمان له جانبان ٩٦

الفصل الرابع ملحقات من أجل تمام الفائدة

ملحق رقم(١) حوار هرقل ملك الروم مع أبي سفيان قبل أن يسلم ١٠٠
ملحق رقم(٢) الإلهام و الرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم ١٠٣
المسألة الأولى : لا يصح الاعتماد على الإلهام ١٠٣
المسألة الثانية : لا يصح الاعتماد على الرؤيا الصالحة ١٠٧
تعبير الرؤيا أمر ظني وإن صدر من صالحي العلماء ١٠٧
التحذير من المضِلِّين ١٠٨
ملحق رقم (٣) الغيب لا يعلمه إلا الله، والتحذير من كهانات منتشرة ١١٠
من أمراض عصرنا محاولة استطلاع المستقبل ١١٠
انتشار الكهانة باسم الاستخارة ١١١
حقيقة الاستخارة ١١٢
ملحق رقم (٤) في بطلان وجود الكون بالمصادفة، وبطلان طبيعةٍ دون خالق منظّم.. ١١٥
بطلان الإلحاد – الإلحاد لا دليل عليه........ ١١٥
ربط أنظمة المخلوقات بالمصادفة أو الطبيعة طُفولةٌ غَبِيَّةٌ ١١٥
ما هي الطبيعة؟ ١١٧
ملحق رقم (٥) تنوير القلوب وإحياؤها وسقايتها بذكر الله تعالى من الإيمان ١١٨
ملحق رقم (٦) نماذج من معجزا ت ر سو ل الله ﷺ........ ١٢٣
ملحق رقم (٧) حول قضية الأولياء وكراماتهم – كرامات الأولياء – الكرامات موجودة ١٢٦
من هو الولي؟........ ١٢٧
لا تلازم بين الولاية والكرامة – لا يجزم نجزم بولاية إنسان إلا عن طريق الوحي........ ١٢٨
بطلان توهم أن الأولياء يتصرفون في الكون ١٢٩
لا يصح اعتبار المجنون والمعتوه ولياً ١٣٠
أعظم الكرامات الاستقامة على هدي النبي ١٣٠
ملحق رقم (٨) رد شبهات إنكار حُجّية أحاديث الآحاد ١٣٣
ملحق رقم (٩) التحذير من تكفير المسلم لأخيه ١٣٦
عدم تكفير المسلم بارتكاب الكبائر ١٣٦
المسلم إذا عمل عملاً يحتمل الكفر حمل على أخف الاحتمالات ١٣٨
لا يحكم في الأمور التي تقتضي الحكم بالكفر إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع . ١٤١
ملحق رقم (١٠) وساوس الكفر لا تتنافى مع الإيمان ولا يؤاخذ بها العبد ١٤٢
خاتمة ١٤٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله الذي أنار بصائر أحبابه بمعرفة الحق، وهداهم إلى صراطه المستقيم، فجعلهم في دينه على بصيرة، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف/١٠٨] والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بُعِثَ بالحنيفية السمحة، وتَرَكَنَا على المحجة البيضاء، ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

أما بعد: فإنَّ معرفةَ العقيدة الصحيحة أهمُّ جوانب المعرفة(١)،وخطرَ الجهل في العقيدة أعظمُ الأخطار، وأكبر الجهالات (٢) .

ولما رأيت كثيراً من المسلمين أخذوا دينهم إرثاً وَرِثُوهُ عن آبائهم دون علم ولا بصيرة أحببت أن يكون لي نصيبٌ من خِدْمتهم بكتابة رسالة في العقيدة، تكون متوسطةً في الحجم، مؤيدةً بالدليل (٣) تبين عقيدة أهل الحق ليكون هؤلاء الإخوة على بصيرة في دينهم .

وستكون هذه الرسالة إن شاء الله تعالى قريبةً لمنهج الصحابة ﷺ والتابعين والأئمة المجتهدين، وخاليةً من التعقيد، بعيدة عن علم الكلام وعن منطقِ وفلسفةِ اليونان (٤)؛ لأن الغاية

---

(١) فبمعرفة العقيدة الصحيحة ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى الكون والحياة النظرة الصحيحة؛ لأنه ينظر بالمنظار الذي ميز الله تعالى به الإنسان، وهو العقل المستضيء بضياء القرآن الكريم الذي بعث الله تبارك وتعالى به رسوله محمداً ﷺ ؛ فَبِأَنْوارِ رسالته عليه الصلاة والسلام تتحقق هذه المعرفة؛ فرسالته ﷺ أعظمُ أثرٍ من آثار رحمة الله تعالى لعباده .

(٢) إذ بسبب هذا الجهل يَخْسَرُ الإنسان أهم جوانب المعرفة، ومنها أنه جاهل بحقيقة نفسه؛ إذ يجهل الحكمةَ التي وُجِدَ من أجلها، ولا يعرف من أوجده، ويجهل معنى الحياة التي يعيشها، ومعنى الإنسانية التي رفع الله قدرها، فلا تكون له من حياته التي يعيشها غايةٌ يَقْنَعُ بها ويرتاح إليها، وبسبب هذا الجهل أيضاً يكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة .

(٣) والأدلة التي أذكرها هي من القرآن والسنة ومن الأدلة العقلية على منهج القرآن الكريم، وسيجد القارئ مع الأدلة زيادة مستندات أنقلها عن بعض أهل العلم وإن لم تكن ضرورية في البحث العلمي للمسألة، أنقلها لأنها تفيد القارئين بإعطائهم زيادة طمأنينة في بعض المسائل .

(٤) ومع هذا لا يُنكَر استعمال فلسفة اليونان أو غيرها لإزالة شبهاتٍ، وردِّ ضلالاتٍ عند من تأثروا بضلالات الفلاسفة ونحوهم، يقوم بهذا أُناسٌ مؤهلون لذلك بحيث لا تضرهم ضلالات الفلاسفة، وذلك عندما يتعين مثل هذا الأسلوب طريقاً لرد تلك الضلالات .

منها بيان عقيدة الحق لِعامَّةِ المسلمين الخاليةِ أذهانُهم من عقائد الباطل، ولِمَنْ كان قريباً منهم؛ فليس من الحكمة أن نَشْغَلَ أذهان عامَّةِ المسلمين بشبهات المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال .

وأما المختصون بدراسة العقائد والأديان والفرق فلهم كتب أخرى تناسبهم .

وقد رأيتُ أنَّ مِن العافية أن أبتعد في هذه الرسالة عن الانشغال بأمور كثر الجدل فيها مما لا يُسأل عنه العبد يوم القيامة .

ومِنَ العافية أيضاً عندما نرى مسائل جدلية يختلف الناس فيها أن نرجع إلى أحوال الذين رباهم النبي ﷺ وزكاهم فنقتبسَ من أحوالهم قدوة صالحة نَتَّبِعُهُم فيها (٥) .

وقد جعلتُ هذه الرسالة **أربعة فصول**:

ولكن لا ينبغي أن تكون الفلسفة طريقاً عامّاً لبناء العقيدة عند عامة المسلمين؛ لما في ذلك من البعد عن فضائل منهج القرآن الكريم، ولما فيه من الآثار السلبية عندما تُبْنَى العقيدةُ بغير المنهج القرآني الذي بُنِيَتْ عليه عقيدة الصحابة ﷺ؛ فالمنهجُ القرآني هو الذي يلائم الفطرة، وهو المناسب لِمُخْتَلِف أحوال البشر على اختلاف مستويات ثقافاتهم وعصورهم .

وحجةُ الاسلام أبو حامد الغزالي فارس علم الكلام والفلسفة رحمه الله تعالى عندما أَدْرَكَ الآثار السيئة للاشتغال بعلم الكلام تراجع عن ذلك المنهج، كما ذكر النووي رحمه الله تعالى في المجموع حيث قال: **وقد صنف الغزالي رحمه الله في آخر أمره كتابه المشهور الذي سماه "إلجام العوام عن علم الكلام"، وذكر أن الناس كلهم عوام في هذا الفن من الفقهاء وغيرهم إلا الشاذَّ النادر، الذي لا تكاد الأعصار تسمح بواحد منهم والله أعلم** اهـ [مقدمة المجموع ١ / ٢٥] .

(٥) ومن الأمثلة حديث الصحيحين: « **يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْألُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِر لَهُ؟** » الذي اشتغل فيه كثير من المسلمين اليوم اشتغالاً منحصراً في معنى النُّزول المرتبط بعبارة: « **يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا** » وترك فيهم كثيراً من الجدل والخصومات، لكنَّ الصحابة ﷺ عندما سمعوا هذا الحديث كان اشتغالهم مختلفاً عما شُغِلَ به كثير من المسلمين في عصرنا وفي عصور قبله .

فقد آمنوا بما قاله النبي ﷺ ومرَّ عليهم هذا الحديثُ من غير أن يشتغلوا فيه بتأويل ولا تفسير، عارفين عظمةَ صفات ربهم، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يحيطون به علماً، ولم يتكلموا عن هذا النُّزول .

وكان جُلُّ اهتمامهم بما عرفوه من مراد النبي ﷺ منهم عندما خاطبهم بهذا الحديث، وأدركوا أنَّ لهذا الوقت مزيةً في قيام الليل ومزية في زيادة قبول دعائهم، فاشتغلوا بما وجههم إليه النبي ﷺ دعاءً وتضرعاً وبكاءً، ولم يترك هذا الحديث في حياتهم بحثاً ولا جدلاً، ولا خصومة ولا عداوة، إنما ترك في حياتهم التَّبَتُّلَ إلى الله عز وجلَّ، وأنْ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وتوبةً واستغفاراً، وجعلهم سماعُهم لهذا الحديث من المنتفعين بقوله تعالى: ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة / ١٦] .

الفصل الأول: في تعريف علم العقيدة، وبيان خصائصها، مع إضاءات علمية ضرورية تجعل المسلم الدارس لها على بصيرة في دينه، وتبعده عن الانحرافات الخطيرة التي زَلِقَ إليها كثيرٌ من المتدينين .

الفصل الثاني: في بيان الإيمان مُجْمَلاً ومُفَصَّلاً .

الفصل الثالث: في ذكر ميزان للإيمان يزن به المسلم إيمانه قوة وضعفاً .

الفصل الرابع: في ملحقات نافعة مرتبطة بأبحاث الكتاب تزيدها وضوحاً، وتعظم بها الفائدة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى (٦) .

وكنت قد ذكرت في تعليق في حاشية على كتاب **صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني** أن هذا الكتاب سيصدر باسم: **صفحات في بناء الإيمان**، وقبل أن أهيِّئ هذه الطبعة سبق أن طبعه نفسَه في **دار الكلم الطيب** في دمشق صاحبها الدكتور محيي الدين مستو جزاه الله خيراً، وبعد المشاورة رأينا أن نسميه باسم: **المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة** فأبقيته على هذا الاسم الجديد (٧) .

---

(٦) **وهي عشرة ملحقات:**

الأول: في حوار هرقل ملك الروم مع أبي سفيان قبل أن يسلم .

الثاني: في الإلهام و الرؤيا الصالحة وأنه لا ينتج عنهما علم .

الثالث: في بيان أن الغيب لا يعلمه إلا الله، والتحذير من كهانات منتشرة باسم الاستخارة .

الرابع: في بطلان وجود الكون بالمصادفة، وبطلان طبيعةٍ دون خالق منظّم .

الخامس: في تنوير القلوب وإحياؤها وسقايتها بذكر الله تعالى من الإيمان .

السادس: في نماذج من معجزا ت رسو ل الله ﷺ .

السابع : حول قضية الأولياء وكراماتهم .

الثامن : في رد شبهات إنكار حُجّية أحاديث الآحاد .

التاسع: في التحذير من تكفير المسلم لأخيه .

العاشر: في بيان أن وساوس الكفر لا تتنافى مع الإيمان ولا يؤاخذ بها العبد .

(٧) وكنت قد طَبَعْتُ مختصراً لهذا الكتاب بحجم صغير، وسميته: **صفحات مختصرة في بناء الإيمان** أرجو الله تعالى أن يجعل في ذلك النفع والقبول .

الفصل الأول

تعريف علم العقيدة - خصائصها - إضاءات علمية

علم العقيدة الإسلامية وخصائصها:

علم العقيدة: هو العلم الذي تعرف به العقائد الدينية التي جاء بها رسول الله ﷺ بالأدلة اليقينية .

خصائصها :

وهذه العقيدة لها خصائصُ عظيمة تتميز بها، **ومن هذه الخصائص**:

١- **موافقتُها للفطرة**، فهي تُنِيرُ القلبَ فينشرحُ بها الصدر؛ لأنها تلائم الفطرة، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم/ ٣٠] .

٢ - **سهولتُها ووضوحها وبُعدها عن التعقيد**، يفهمها أقل الناس علماً، ويدرك عظمتَها الراسخون في العلم .

٣- **بناؤُها على الدليل والإقناع العقلي العلمي**، فهي تخاطب العقل وتُبْنَى على أحكامه .

٤- **تجعل المؤمن على علاقة قوية بالله تعالى**؛ فتترك فيه أسمى معاني الطمأنينة والراحة، والعزة والقوة، والرحمة والإحسان، والتواضع وحب الخير للناس .

وهذه الخصائص العظيمة تجعل العقيدة تثبت في القلوب، تَقْوى ولا تَضْعُفُ، ولا يتخلى عنها صاحبها مهما كانت الامتحانات والشدائد التي يتعرض لها [٨] .

---

(٨) وقد عرف هذا أبو سفيان ؓ قبل إسلامه بما عرفه من حال الصحابة ؓ، وعرفه أيضاً هرقل بما عرفه عن حقيقة الإيمان، ويظهر لنا ذلك من الحوار العلمي الذي جرى بينهما عندما كان هرقل يبحث عن الحقيقة بعد وصول رسالة النبي ﷺ إليه، وكان من هذا الحوار أن قال هرقل: « **وَسَأَلْتُكَ: هَل يَرتَدُّ أَحَدٌ سَخطَةً لِدِينِهِ بَعدَ أن يَدخُلَ فيه؟ فَزَعَمتَ أنْ لا، وكَذلك الإيمانُ حينَ تُخَالِطُ بشَاشَتُهُ القُلوبَ لا يَسخَطُهُ أَحَدٌ** » [**البخاري /٧**] وهذا الحوار رواه البخاري عن أبي سفيان في حديثٍ طويلٍ عظيمِ الفائدة في جوانب من العقيدة، تجده في الملحق رقم (١) في آخر الكتاب .

وهذه الخصائص العظيمة – بالإضافة إلى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، مع ما لا يُحصى من جوانب الكمال في هذا الدين – جعلتْ كثيراً من المفكرين المعاصرين في العالم ومن أصحاب الثقافات العالية يعتنقون الإسلام (٩) ويَدْعُون إليه، ويلتزمون بتشريعاته التزاماً عظيماً نابعاً من صدق إيمانهم وحبِّهم لهذا الدين واعتزازِهم به والدعوةِ إليه، وتذكرنا هذه الأحوال الطيبة عندهم بِما عرفناه في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من الثبات والاستقامة، والصدق فيما عاهدوا الله عليه، رضي الله تبارك وتعالى عنهم وجعلنا من التابعين لهم بإحسان .

---

(٩) وقد كُتبت في أخبارهم كتبٌ متعددة من قِبَلِ المسلمين، وبعض هؤلاء الداخلين في الإسلام كتبوا عن الإسلام وخصائصه ومن هؤلاء الكاتبين **محمد أسد [ليوبولد فايس]** النمساوي ومن كتبه **الطريق إلى الإسلام** ومنهم **موريس بوكاي** الفرنسي الذي ألف كتاب **الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة** الذي بين فيه جوانب علمية مهمة تدل على أنَّ القرآن هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي حُفِظَ من التغيير والتبديل، ومنهم القسيس **جيرالد ف . ديركس** الأمريكي الحاصل على درجة الماجستير في اللاهوت من جامعة هارفارد، وعلى الدكتوراه في العلوم النفسية من جامعة دينيفر الذي ألف قبل إسلامه كتاب **الصليب والهلال محاورة في العقيدة بين المسيحية والإسلام** الذي ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ فخري اللقّيس وطبع في حمص عام ٢٠٠٩ م وهذا باب واسع يظهر فيه حال كثير من المنصفين الذين تحدث القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ **[المائدة/٨٢–٨٥]** .

ومن المفيد أن نعلم أنَّ هؤلاء الكاتبين عن الإسلام توجد في كتاباتهم ملاحظات يخالفون فيها الحق بسبب قلة معلوماتهم عن الإسلام فينبغي لمن يطالع كتبهم أن يحذر ويراجع أهل العلم .

الإضـــاءات العلمية

الإضاءة الأولى: الإسلام دين المعرفة والبرهان:

من خصائص ديننا أنه دين المعرفة والبرهان، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء/٣٦] .

وقد عَلَّمَنا الله تعالى اعتمادَ الدليل والبرهان في ديننا، بحيث نستطيع أن نقول لغيرنا: هاتوا برهانكم، قال سبحانه: ﴿ **أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل/٦٤] .

وأُسُسُ هذا الدين كلٌ منها مبنيٌّ على أقوى الأدلَّة وأوضح البراهين، وكلُّ مسألة منها لها دليلها وبرهانها الذي يكون به المؤمن في دينه على بصيرة، ويُقْنِعُ به كلَّ مُنْصِف، وهذه الصفة من أهَمِّ صفات الأتباع الحقيقيين لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف/١٠٨] .

الإضاءة الثانية: اهتمام الإسلام بالجانب العقلي:

إنَّ مِنْ أعظم ما يركز عليه القرآن الكريم في جانب الدعوة لهذا الدين العلمي الحنيف هو الخاصِّية الأولى للإنسان، وهي الجانب العقلي، ومن مظاهر هذه العناية:

١ – أنَّه رَبَطَ بالعقل التكليفَ الشرعي وجوداً وعدماً؛ فالعاقل مكلف، وغير العاقل ليس مكلفاً بشيء عند الله تعالى .

٢ – أنه مَنَعَ المسلمَ من أن يقول أيَّ قولٍ، أو يعمل أيَّ عمل إلا بعلم، وجعله مسؤولاً عن وسائل العلم التي أعطاه الله تعالى إياها، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء / ٣٦] .

٣ – أنَّه اعتبر إهمال العقل نزولاً عن المنْزلة والكرامة الإنسانية، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف / ١٧٩] .

الإضاءة الثالثة: بيان وسائل العلم والمعرفة:

نحن بحاجة إلى بيان وسائل العلم والمعرفة بشكل عام؛ لنصل إلى تصورٍ وسلوكٍ صحيحين في كل جانب من حياتنا، لكنَّ أهم ما نحتاج إلى بنائه على الأسس العلمية هو معرفتنا لهذا الدين العظيم الذي أكرمنا الله تعالى به .

والسبب الذي دفعني إلى الاهتمام بهذا الأمر كثرة من يتكلم في الدين بغير المنهج العلمي، وقد أدى ذلك إلى جهلٍ مركبٍ، وتصوراتٍ غيرِ صحيحة في أمور كثيرة من ديننا الحنيف، وإذا كان الجهل في الدين خطيراً فإنَّ الجهل في العقيدة خطره أعظم؛ فما هي وسائل العلم والمعرفة عند الإنسان؟ .

وسائل العلم والمعرفة للإنسان ثلاثٌ وهي:

١- الحواس السليمة ٢- العقل السليم ٣- الخبر الصادق .

وكلٌّ من هذه الوسائل يُدرَكُ به ما لا يُدرك بالآخر .

فبالحواس السليمة نعرف المحسوسات من المرئيات والمسموعات والمطعومات وغيرها.

وبالعقل ندرك المعقولات التي يقطع العقل بصحتها [١٠] .

وبالخبر الصادق نعرف بعض ما غاب عنا من الأمور [١١] .

وبهذه الوسائل يمكن أن يصل الإنسان إلى العلم والمعرفة، وأن يوصل غيره .

الإضاءة الرابعة: الإلهام و الرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم:

ما تقدم من الوسائل هو الذي يمكن أن يصل به الإنسان إلى العلم والمعرفة .

وقد اعتمد بعض الناس في بعض أمورهم على وسائل أخرى كان اعتمادهم عليها من أسباب ضلالهم وبعدِهم عن أهم ما مَيَّزَ الله تعالى به الإنسان .

---

(١٠) فمن رأى المصباح الكهربائي في الليل مضيئاً فهو على علم بما شاهده بواسطة حاسة البصر، وهو أيضاً على علم بواسطة العقل أنَّ في الأسلاك الموصولة بالمصباح تياراً كهربائياً.

(١١) فمن عرف وجود دولة عباسية في العراق كانت تَحْكُمُ العالم الإسلامي في عصر هارون الرشيد فإنَّ معرفته مبنية على خبر صادق هو الخبر المتواتر، ومن عرف أن سيدنا محمداً ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده فإن معرفته هذه مبنية على خبر صادق هو الوحي الإلهي الذي عرفت صحته وصدقه بالأدلة العلمية العقلية كما سيأتي، سواء كان هذا الوحي من القرآن أو السنة .

ومن ذلك ما يتوهمه كثير من المسلمين – لشبهات عندهم – أنَّ إلْهام الصالحين والرؤيا الصالحة يمكن الاعتماد عليهما .

وهذا بعدٌ عن المنهج العلمي الذي جاءت به أدلة القرآن والسنةِ الصحيحة؛ فالإلهام والرؤيا الصالحة لا يُورِثان عند الإنسان علماً كما سيأتي؛ فلا يصح لمسلم أن يعتمد عليهما؛ وإنَّ اعتمادهما يخالف قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء/٣٦] .

وقد أدرك علماء المسلمين ذلك وعرفوا خطر الاعتماد على الإلهام ونحوه فحذروا من ذلك في كتب العقيدة والفقه وأصوله، حتى إنَّ صاحب كتاب: **العقائد النسفية** عندما بيَّنَ وسائلَ المعرفة فقال: « **وأسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل** » أتبع ذلك بالتحذير من الاعتماد على الإلهام فقال: « **والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق** » وذلك في أول صفحة من كتابه [١٢] .

الإضاءة الخامسة : إيماننا بالغيب يعتمد على المنهج العلمي :

يتوهم بعض الناس أن الإيمان بالغيب يتنافى مع العلم؛ ومن أسباب هذا التوهم كثرة ما عند الناس من اعتقادات غيبية لا تستند إلى دليل، وهذا واقع مشاهد .

ولكن اعتقاد المسلم الحقيقي بأمور الغيب يختلف عن ذلك، ويعتمد على المنهج العلمي؛ لأنه عندما نبني إيماننا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالقرآن الكريم على الأدلة والبراهين العلمية فإنه ينتج عن ذلك أننا عندما نؤمن بأمرٍ غيبيٍّ جاء به القرآن أو بَلَّغَهُ النبي ﷺ فإنَّ هذا الإيمان الغيبي يكون مبنياً على العلم [١٣] .

ونتذكر هنا أنه عندما سعى رجل من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم رجع من ليلته .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أوَ قال ذلك؟ قالوا نعم .

---

(١٢) ومن أراد زيادة البيان في بطلان الاعتماد على الرؤيا الصالحة أو الإلهام ومعرفةَ كلامِ العلماء في هذا الأمر فإنه يجد بُغْيَتَه في الملحق رقم (٢) في آخر الكتاب .

(١٣) وسيأتي بيان ذلك واضحاً عندما نتحدث بالتفصيل عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، ويليق بنا هنا أن نتذكر هذه المزية لديننا العظيم، وأن نشكر الله تبارك وتعالى عليها.

فقال أبو بكر ﷺ : **فإني أشهد إن كان قال ذلك لقد صدق** .

فقالوا أتصدقه بأنه جاء الشام في ليلة واحدة ورجع قبل أن يصبح؟ .

قال أبو بكر ﷺ : **نَعَمْ إنِّي أُصَدِّقُه بأبعدَ منْ ذلك أصدِّقُه بِخَبَرِ السماء بكرةً وعشياً، فلذلك** سمي أبو بكر بالصديق [**الحاكم ٣ / ٦٥ وصححه وأقره الذهبي، وعبد الرزاق ٥ / ٣٢١**] .

وهذا التصديق جانب علمي مبني على معرفته بعصمة الرسل التي سنقف عندها إن شاء الله تعالى ضمن بحث الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

الإضاءة السادسة : لا مستند في أمور الغيب إلا الوحي:

أما ما يُسْمَعُ من أمور الغيب وليس معتمَدَه الوحيُ —كتاباً أو سنةً – فلا يُعْتمد عليه؛ لأنه ليس علماً .

ومن اعتمد في أمور الغيب على غير هذا الوحي فقد خالف شرع الله تعالى، وابتعد عن مبادئِ العلمِ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله (١٤)، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [**الإسراء/٣٦**] .

وقال سبحانه: ﴿ **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ [**النمل/ ٦٥**] .

وهذه المخالفة لشرع الله سبحانه بابٌ خطير يؤدي إلى الانحراف عن المنهج الحق الذي أكرم الله تعالى به خِيْرَةَ البشر الذين يعملون بوصية الله تبارك وتعالى لهم بقوله: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [**الأنعام / ١٥٣**] .

---

(١٤) ومن المخالفة الخطيرة لشرع الله تعالى ما ينتشر من الكهانة في عصرنا ويربطونه بما يسمونه استخارة أو رقية شرعية ويغطون بمثل هذه الأسماء كهانَتَهُم، وفي الملحق رقم (٣) زيادة بحث في هذا الموضوع .

الفصل الثاني: الإيمان مجملاً ومفصلاً

الإيمان مُجْمَلاً:

إن الإيمان الذي يَقْبَلُهُ الله تعالى ويرضاه من العبد ويثيبه عليه الخلودَ في الجنة هو الإيمان بمضمون شهادتي أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: ((**أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَأَنّي رَسُولُ اللّهِ. لاَ يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلاّ دَخَلَ الْجَنّة**)) **[مسلم / ٢٧]** .

ويُبْنَى على الشهادتين أركانُ الإيمانِ التي بَيَّنَها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عندما سئل عن الإيمان فقال: ((**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**)) **[مسلم / ٨]** .

كما يُبْنَى عليهما الإيمانُ بكل ما جاء به رسول الله ﷺ من الوحي، ومن ذلك جميع ما أخبر به النبي ﷺ من الأمور الغيبية والأحكام الشرعية التي ذُكرت في القرآن الكريم، أو في الأحاديث الصحيحة .

فإذا نطق الإنسان بالشهادتين موافقاً قلبُه لسانَه خاضعاً لله تعالى مصدقاً بكل ما جاء به رسول الله ﷺ ومات على ذلك كان من المؤمنين الخالدين في الجنة المكرمين بمرضاة الله عز وجلَّ .

تفصيل أركان الإيمان

من الخير أن يكون تفصيل جوانب الإيمان في هذه الرسالة مرتبطاً بتفصيل النبي ﷺ عندما سئل عن الإيمان في حديث جبريل السابق فذكر أركانه الستة التي هي الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره .

الركن الأول الإيمان بالله تعالى وحده

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الإيمان بالله فطرة وبديهة:

لا حاجة في الأصل لبحث الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته؛ لأن **هذه الحقيقة فطرةٌ وبديهةٌ** .

أما كونه فِطْرةً فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم/ ٣٠] وقال ﷺ : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ** » .

[البخاري / ١٣١٦ ومسلم / ٢٦٥٨]

ومن مظاهر هذه الفطرة ما يشاهده الناس من أنَّ الكافر والمشرك عندما يقع في شدة أو كرب فإنه يلجأ إلى الله تعالى يرجو منه النجاة كما قال تعالى:﴿ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ **[النحل/ ٥٣-٥٤]** .

وأما كونه بديهةً فلأن الإنسان العاقل إذا رأى أيَّ مصنوع مهما قل شأنه فإنه يعلم بداهة أنَّ له صانعاً ولا يتساءل عن وجود صانع لهذا المصنوع (١٥) .

وإذا نظرنا إلى قصص الأنبياء في القرآن وجدناهم لا يخاطبون الناس بمسألة وجوده تعالى ولا بأنه سبحانه إلهٌ، بل يخاطبونهم بقضية وحدانيته ويعرفونهم صفاته .

والسبب في ذلك هو الحقيقةُ التي ذكرناها وهي أن الإيمان بوجوده سبحانه فطرة وبديهة، يعرف ذلك كل إنسان في نفسه، كما أشارت إلى ذلك الآيات الكثيرة، ومنها الآية الكريمة التي

---

(١٥) سيأتي معنا الدليل على وحدانية الله تعالى في بحث الصفات، أما قضية وجود الله تعالى فلا تحتاج إلى دليل، انظر هل رأيت فيما مضى من حياتك عاقلاً يسأل عن وجود صانعٍ لِوَرْدَةٍ أو ورقةٍ من نباتات الزينة الميتة؟ وكذلك إذا رأى الإنسانُ تمثالاً لبيضة أو لصوصٍ فإن من البديهي عنده أنَّ ما رآه من التمثال الجامد الميت له صانع، وإذا ما سأل أحد عن وجود صانع لما رآه من هذه الأمور اتُّهِمَ في عقله وعُرِفَ عدمُ التوازن في تفكيره .

هذا إذا كان التساؤل عن الجماد الميت مما يصنعه الإنسان فكيف إذا كان التساؤل عن الوردة الحية وأوراقها، وعن البيضة والصُّوصِ وكيف تَحَوَّلَ في واحد وعشرين يوماً من بيضة إلى هذا الكائن الحي العجيب، وما فيه من العظام والعضلات والأعصاب والأوردة والشرايين والسمع والبصر والدم وتصفيته بالرئة والكلية، إلى غير ذلك من عجائب صنع الله تعالى، وإذا قلنا: الصوصُ آيةٌ فإن هذه الآية تتضمن آيات، وإذا قلنا: عينُه آيةٌ فإن هذه الآية تتضمن آيات .

وإذا سمعتَ بعد هذا من يزعم أن هذا الكون وجد مصادفة، أو يدعي أن الطبيعة أَوْجَدَتْهُ عرفت أنه واحد من اثنين، إما أنه لم يُعمِلْ عقله وتفكيره، وإما أنه معاند؛ لأنه يجحد البديهيات، وإذا أردت مناقشةً لمثل هذه الدعوى وجدت ذلك في الملحق رقم (٤) في آخر الكتاب .

تحدثنا عن رُسُلِ الله تعالى لا عنْ رسولٍ واحدٍ، وهي قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ** ﴾ [إبراهيم / ١٠] .

المسألة الثانية : البرهان والدليل العقلي ركيزة الإيمان بالله تعالى

الفطرة قد تنحرف، والجهالة والأهواء قد تغطي البديهيات عند الإنسان فلا بد من أساس عقلي وبرهان علمي يكون سنداً لهذا الإيمان الفطري .

وقد سلك القرآن الكريم طريق إثارة التفكير عند الإنسان ليوصله إلى حماية فطرة الإيمان بالله تعالى وإلى تثبيت هذا الإيمان عن طريق الدليل والبرهان في آيات كثيرة .

منها الآية الكريمة: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم** ﴾ [البقرة/٦٣] وقد ذُكر فيها وحدانيةُ الله تعالى وبعضُ صفاته، فإذا نظرنا إلى ما بعدها من الآيات وجدنا ما يرشد الإنسان إلى التفكير الواسع، والبرهان الساطع الذي يوصله إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة عظمته بواسطة التفكير في مصنوعاته، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة / ١٦٤] .

وإذا قرأنا في أول سورة النحل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الإيمان بالله وحده في قوله تعالى: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُون** ﴾ وجدنا بعد ذلك ما يدل الناس على صفاته العظيمة عندما يفكرون في مصنوعاته .

فقد ذَكَرَ سبحانه خَلْقَهُ للسماوات والأرض، وخَلْقَهُ للإنسان وما سخره له من الأنعام فقال سبحانه: ﴿ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ .

ثم ذكر المطر والنبات والثمرات وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر فقال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ**

وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

وبعد هذا ذكر تثبيته للأرض بالجبال وما ربطه بالجبال من الأنهار ومصالح البشر مذكراً عباده بفضله ورحمته (١٦) فقال: ﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ **[النحل / من ١-٥ ومن ١٠-١٣ ومن ١٥ – ١٩]** .

المسألة الثالثة : معرفة صفات الله تعالى :

لا يصح إيمان الإنسان بالله تعالى إلا إذا آمن بصفاته، ولا يعرف الله تعالى إلا من عرف صفاته .

ومن الممكن أن يعرف الإنسان صفات الله عز وجل معرفةً إجمالية؛ بحيث يعرف أنه تعالى واحد لا شريك له، وأنه متصف بصفات العظمة والكمال التي تليق به فوق ما يتصور البشر، وأنه مُنَزَّهٌ عن جميع صفات النقص، وعن مشابهة المخلوقات .

لكن لا بد لنا مع هذه المعرفة الإجمالية من أن نعرف من صفات الله تعالى تفصيلات جاءت في القرآن الكريم، وفي سنة النبي ﷺ .

وستكون هذه المعرفة ضمن ثلاثة أبحاث :

١- طريق معرفة صفات الله تعالى ٢- أسس معرفة صفاته ٣ – الإيمان بما فصل من صفاته في القرآن والسنة .

---

(١٦) هذه الآيات القرآنية وغيرها مع أنها تحرك عقول العباد بالتفكير في مخلوقات الله ليعرفوا وحدانيته وعظمته وعظمة صفاته سبحانه، تذكرهم أيضاً بعظيم فضله، وكثرة نعمه، وبأنهم المفتقرون إليه في كل ما يحتاجونه، وأنهم إليه راجعون، وهذه جوانب إيمانية ضرورية ترافق معرفة الأدلة والبراهين؛ **فمنهج القرآن في هذه الأمور وغيرها هو المنهج الأمثل في بناء الإيمان يُنَوِّرُ العقول ويَحميها، ويضيء القلوب ويُحييها، ويُهَذِّبُ النفوس ويُطَهِّرُها، وهذه أهم المساعدات على الاستقامة والنجاة .**

البحث الأول في طريق معرفة صفات الله تعالى:

معرفة صفات الله لها طريقان، كلٌّ منهما مرتبط بالآخر:

الأول: النظر والتأمل في مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، **والثاني**: الوحي الذي جاء به النبي ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى .

الطريق الأول لمعرفة صفات الله تعالى التفكير في مخلوقات الله

إنَّ الصنعة كما تدل على وجود صانعها تدل أيضاً على صفاته، فإذا تأملت آلةً واطَّلَعْتَ على بعض أقسامها التي تكونَتْ منها، وما يرتبط بكل قسم من الوظائف عرفت كثيراً من صفات صانعها، وعرفت بعض ما عنده من العلم والقدرة والحكمة .

وكذلك التفكير في أنفسنا وفيما حولنا من المخلوقات فإنه يدلنا على الله تعالى، وعلى عظيم صفاته (١٧) .

---

(١٧) ومن جوانب التفكير التي تدلنا على الله تعالى، وعلى عظيم صفاته، وتدلنا في الوقت نفسه على عظيم فضل ربنا سبحانه وتعالى على كلِّ واحد منا أن يتأمل وأن يفكر في قلبه وفي وظائف هذا القلب وفيما يرتبط به من الأوردة والشرايين وما خلقه الله تعالى فيها من الدم، ووصوله إلى كلِّ جزء من الجسم مهما كان صغيراً، ويفكر فيما تركب منه هذا الدم، وفيما يرتبط به وبأجزائه من الوظائف وفيما جعله الله في الدورة الدموية من النظام من حيث الضغط، ومن حيث نِسَبُ ومقاديرُ الأشياء الموجودة في الدم من الملح والسكر والكريات الحمراء والبيضاء وغيرها، مع ما يرتبط به الدم من الكلية والبنكرياس والكبد والطحال وغيرها، وأن يفكر في عمل كلٍ منها .

وكذلك إذا فكر أحدنا في عينيه وتركيبهما ووظائف أجزائهما، وما يرتبط بهما من الأجفان والأهداب وغدد الدمع وقناته وما جعله الله فيهما من تصوير مستمر للمرئيات، وما يرتبط بهذا التصوير، وإرسال هذه الصور إلى مستودع الذاكرة .

وكذلك لو فكَّر في هذه الذاكرة التي هيأها الله تعالى لاستيعاب مليارات المعلومات وفكر أيضاً في تنظيم خزنها بحيث يخرج لك هذا النظام ما تحتاج إليه من المعلومات القديمة مترابطةً في لمحة بصر، انظر فيما لو وقعت عيناك على شخص لم تره منذ عشر سنين أو أكثر فتصوِّرُه عيناك وتذهب الصور إلى الذاكرة عن طريق الأعصاب فتخرج من مستودع الذاكرة – التي تحوي آلاف الآلاف من الصور – أقربَ الصور إلى تلك الصور الجديدة القادمة من العينين مرتبطاً بها اسم الشخص ونسبه وأمورٌ كثيرة من الذكريات المرتبطة بهذا الشخص، ويمكن أن نقول مثل ذلك فيما لو سمع إنسان صوت إنسان ممن يعرفهم ولم يسمع صوته منذ عشر سنين، فسبحان الذي أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ووهبنا وسائل العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ**

ضرورة ارتباط تفكيرنا بحقائق العلم المعاصر :

ومن الجدير بالذكر أن نعرف – نحن أهلَ هذا العصر – أنَّ المطلوب منا أن يكون تفكيرنا موافقاً لما يناسب عصرنا، فالقرآن الذي أرشدنا إلى التفكير في مخلوقات الله تعالى مُوَجَّهٌ إلى جميع الناس في كل العصور، فالنظر في السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والنظر في أنفسنا وفي أعيننا وفي أسماعنا وأبصارنا وغير ذلك مما أُمرنا أن نفكر فيه يثمر أكثرَ عندما يكون هذا التفكير بمنظار هذا العصر الذي يَسَّرَ الله فيه للإنسان أن يغوص في أعماق أسرار الخلق، وهذا يعطي نتائجَ إيمانيةً أعظمَ، ومعرفةً أكبرَ بعظمة الله تعالى، وعظمة صفاته .

أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل/٧٨] .

وهكذا ينبغي أن نفكر في آيات الله الكونية بشكل عام وفي آيات الله المرتبطة بمصالحنا بشكل خاص، نفكر فيما سخره الله لنا في السماء والأرض، تسخيراً عاماً، كالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار والرياح والسحاب والمطر والهواء وما يرتبط بها .

ونفكر كذلك فيما يخص كلاً منا من نعم الله علينا باللسان والشفتين والأذنين والأعصاب والغدد والمفاصل والمعدة والأمعاء وما يرتبط بكل منها، مع التفكير فيما حولنا من آيات الله فيما نحن مضطرون إليه من نعم الله التي لا تحصى، التي يذكرنا الله تعالى بكثير منها، كما في قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ...... أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ....أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ** ﴾ **[الواقعة / ٥٨– ٧٣]** وقوله سبحانه: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** ﴾ **[عبس/٢٤– ٣٢]** وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ **[القصص/٧١، ٧٢]** .

إن هذا التفكير يعرفنا عظيم صفاته تعالى، ويربطنا أيضاً بالعبودية له وينتج ثماراً طيبة .

ومن المفيد إعادة التذكير بأن القرآن الكريم عندما يعلمنا الإيمان ويعرفنا صفات الله من الوحدانية والرحمة والعلم والقدرة والعظمة والحكمة عن طريق التأمل والتفكير يذكرنا أيضاً بحاجتنا وافتقارنا إليه سبحانه، والقرآن الكريم مليء بهذا التوجيه العظيم عند ذكره لكثير من الآيات الكونية .

فالقرآن الكريم وجَّهَنا للتفكير في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** ﴾ [البلد/ ٨] وقوله: ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق/ ٥] وقوله: ﴿ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾ [النحل/ ١٥] وقوله: ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد / ٨] وقوله: ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** ﴾ [الحجر/ ٢١] وقوله: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر/ ٤٩] .

وهذا التفكير يوصلنا إلى جانب عظيم من معرفة صفات الله تعالى، والإيمانِ بها، في أيِّ عصر كنا، وبأي مستَوى فكرنا، ولكن إذا كان تفكيرنا مرتبطاً بخصائصِ عصرنا وبالمستوى العميقِ مما وصل إليه علم الإنسان فإن النتائج الإيمانية تكون أعظم (١٨) .

---

(١٨) فينبغي لنا أن نغتنم هذا الباب من أبواب الخير، فمن كان عنده جانب من الدراسة والاطلاع على الجوانب العلمية فينبغي أن يفيد إخوانه ويثير تفكيرهم في آيات الله تعالى ونعمه، ومن وجد أخاً عنده هذا الجانب العلمي فينبغي أن يستفيد من علمه .

ومن عادتي أنني عندما ألتقي مع مهندس زراعي أو خبير كيميائي أو خبير في بعض الاختصاصات العلمية المتعلقة بالتنظيمات الإلهية لهذا الكون وأجد فرصة لإثارة تفكير مرتبطٍ بالعلم الحديث أطلب منه أن يحدثنا ببعض معلوماته لعل ذلك يزيد إيماننا ويجعل فينا إحدى صفات الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ **[آل عمران/١٩١]** وقد رأيت آثاراً طيبة في نفسي وفي الجالسين المستمعين وفي المتحدث نفسه لمثل هذه الأحاديث الطيبة .

وقد زُرْتُ يوماً الأخ الدكتور أحمد شبلوط منذ ثلاثين سنة تقريباً عندما جاء من أمريكا وقد حصل على إجازة البورد الطبي الأمريكي باختصاص الكُلية وكان عنده بعض الزائرين فتكلمت ببعض الجوانب الإيمانية في ذلك المجلس، ثم طلبت منه أن يحرك قلوبنا بذكر بعض آيات الله ونعمه المتعلقة بالكلية فاستجاب وذكر بعض ما توصل إليه العلماء في ذلك فأخرجت دفتري الصغير وقلمي وسجلت بعض هذه المعلومات .

والآن عندما كتبت هذه المقالة أردت تدقيق بعض المعلومات التي كنت سمعتها منه فسألته على الهاتف فأعاد علي بعض ما سمعته منه وذكر زيادة على ذلك وذَكَّرني ببعض آيات الله الكونية فأحببت أن أذكر بعضها للقارئ الكريم في هذا التعليق .

ما الكُلية التي هي من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى فإنه يغذيها شريان واحد يتفرع منه ألف ألف [مليون] فرعٍ تغذي ألف ألف [مليون] كُليةٍ صغيرةٍ [كُبَّة كُلوية] .

قال: وهذه الكُلية لها وظائف متعددة فهي تصفي الدم من السموم، وتفرز هرمون الضغط، وتحدد فيه القلوية والحموضة، وتجعل نسبة الحموضة ثابتة على مدى عمر الإنسان (٧,٤) .

ولو نزلت الحموضة إلى (٧,٢) لتَسَرَّعَ القلبُ والتنفسُ من أجل طرح ثاني أوكسيد الكربون ومحاولة إصلاح الحموضة، وإذا زاد النقص أكثر من ذلك توقف القلب وعجز عن الاستجابة لكل المحرضات الكهربائية والكيميائية ولا يعود لعمله إلا بإصلاح حموضة الدم .

وذكر من عظيم شأن الكلية أنها عندما تُزرع وتوصل بالشريان يبدأ عملُها مباشرة ويتدفق البول فوراً في الحالب قبل وصل الحالب بالمثانة فتطرح الكلية من جسم المريض الذي تكاثرت السموم في دمه وزرعت له هذه الكلية ليتراً إلى ليترين في الساعة ثم يتناقص عملها حتى تصل السموم إلى المستوى المعتاد الذي يتناسب مع حاجة الجسم فتتباطأ الكلية في عملها حتى يصل إلى ليتر واحد كل يوم .

ومن مجالات التفكير المهمة أن نفكر في حاجتنا إلى الحُريرات – التي لا يستطيع أحدنا أن يحرك يده أو جفن عينه إلا بها –كيف هيأها الله لنا؟ .

الإنسان محتاج إلى الحُريرات، وقد عرف أكابر العلماء اليوم عجز الإنسان عن إيجاد حُرَيْرَةٍ واحدة من العدم أو إيجاد أيٍّ جزء من أي مادة في هذا الوجود، ولو ذرة واحدة، و(الحُريرة) هي الطاقة اللاز٠مة لتسخين (١) غرام من الماء المقطر درجةً مئوية واحدة .

فمن أين جاءتنا هذه الحريرات؟ والجواب أنها جاءت من الشمس التي سخرها الله لنا وذلك بما جعله الله تعالى من اليخضور في الورقة الخضراء الذي يتعامل مع عناصر التربة والماء مع ثاني أوكسيد الكربون فتتشكل السكريات التي نأكلها ونستفيد من طاقتها

هذا وإن اليخضور هو المادة الوحيدة في الدنيا التي تستطيع أن تأخذ من الطاقة الشمسية ما تحوله إلى طاقة كيميائية نستفيد منها بأكلنا من النباتات، أما النباتات التي لا تنتج ثماراً ولا نستطيع هضمها فإننا نستفيد من أوراقها التي هي عبارة عن مادة السيليولوز التي هي سكر مركب، ولكنا نستفيد منها بواسطة الأنعام التي سخرها الله لنا والتي تأكل هذه الأوراق النباتية وترعى الأعشاب فتهضمها بما جعله الله تعالى فيها من أمعاء طويلة وخمائر كثيرة وتحولها إلى سكر بسيط ثم إلى بروتين ودهون، ونحن نتمتع بأكل لحومها وشرب ألبانها؛ فهذه الطاقة الموجودة في أجسادنا آتية من الشمس المسخرة لنا بواسطة ما سخر الله تعالى لنا من النباتات والحيوانات .

وبعد هذا نقف مع أنوار هذه الآيات: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ [النازعات/٣٠-٣٤] ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل/٥] ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل/٦٦] ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ [يس/٨٠] .

وهذا ينطبق نفسه على الأسماك المسخرة لنا في البحار، حيث تأكل الأحياءُ المائية الصغيرة الطحالب الخضراء ثم تأتي الأسماك فتأكلها ثم تأتي أسماك أكبر فتأكل منها، وهكذا إلى الحيتان الكبيرة، وهذا

من رزق الله الذي يقول لنا: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ** ﴾ **[الملك/١٥]** ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا** ﴾ **[النحل/١٤]** .

ومن مجالات التفكير الواسعة أن نفكر في العناصر الكيميائية التي تختلف عن بعضها بأوزانها الذرية وخصائصها المرتبطة باختلاف عدد البروتونات بحيث إذا زادت المادة بروتوناً واحداً فإن المادة تتغير وتصبح مادة أخرى فالكربون مثلاً عدد بروتوناته (٦) والأوكسجين (٨) ويصل الوزن الذري لبعض العناصر إلى أكثر من مائتين، وكلٌّ من هذه العناصر الكيميائية له خصائص تميزه مما يناسب حاجة البشرية وتطورها .

بعد هذا يليق بنا أن نتذكر ضعف وجهل هذا الإنسان المفتقر إلى الله تعالى في كل شيء والذي سخر . له ما في السماوات وما في الأرض .

لقد استطاع بما سخره الله له أن يصل في معرفته وصناعته في هذا العصر إلى مستوى لم يكن يخطر على بال أحد في العصور الماضية .

واستطاع أن يعرف كثيراً من خواص المادة وأن يولد الطاقة الكهربائية التي لها دور كبير في تطور الحياة البشرية، وأن يطير في الهواء، وأن يصعد فوق الهواء في الفضاء، وأن يغوص في أعماق المحيطات، إلى أمور وجوانب كثيرة مما توصل إليه الإنسان من العلم والصناعات والاختراعات، لكنه مع ما توصل إليه من المعلومات جاهل ﴿ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ **[الإسراء/٨٥]** ومع ما توصل إليه من القدرات ضعيف عاجز لا يستطيع أن يوجِد ذُرَيرةً واحدة من العدم، وكُلَّمَا تَعَلَّمَ أكثر عرف جهله وضعفه أكثر .

قال تعالى: ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ **[لقمان/١١]** .

وقال أيضاً: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ **[الأنعام/١٠٢]** .

وقال عز وجلَّ: ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ **[الأعراف/١٨٥]** وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ **[فاطر/٣]** .

بعد هذا أقول للقارئ الكريم: إنَّ ما ذكرته في هذه الصفحات من إثارة التفكير في آيات الله الكونية ونعمه يدخل فيما أُمِرنا به من تدبر القرآن الكريم .

ومِن نعم الله عليَّ أني قد تأثرت منذ صغري بمطالعة الكتب الإيمانية الممزوجة بالجوانب العلمية، ومن ذلك **النصف الأول** من كتاب **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن** للشيخ نديم بن الشيخ حسين الجسر الذي كان لكتاب أبيه **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية** أثرٌ ظاهر في شخصيته العلمية وفي كتابه **قصة الإيمان،** ومن تلك الكتب كتاب **القرار المكين** للدكتور مأمون شقفة الذي كان يدرس في كلية الطب في جامعة دمشق، ومن آثار هذا الكتاب علي أنني صرت أجيب عن معنى قوله تعالى ﴿ **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ **[الطارق/٧]** بعد أن كنت إذا سُئلتُ عنه أتوقف وأقول لا أدري؛ لأنه لم يطمئن قلبي لما ذهب إليه كثير من المفسرين أن الضمير يخرج هو للمني وأنه يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة،

الطريق الثاني لمعرفة صفاته تعالى الوحيُ الإلهيُّ:

بعد ما تقدم من التذكرة بالطريق الأول، طريقِ التفكير الذي أرشد إليه القرآن الكريم لا بُدَّ ليسلمَ تفكيرُنا وتُضاءَ قلوبُنا ويزداد إيماننا مِنَ الاقتباس من الوحي الذي تعمُرُ أنواره القلوب والعقول بأنوار وتفصيلاتٍ ترتبط بصفات الله تعالى تجعل القلوب عامرة مطمئنة، ومتنعمة بحلاوة الإيمان؛ فأنوار الوحي الإلهي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تهدينا إلى معرفة أكبر وأكثر .

ومعرفة صفات ربنا سبحانه من طريق الوحي الإلهي تُقَوِّي وتزيد ما عرفه العقل من الحق، وتزيد على ذلك ضياءً إيمانياً في القلوب يحقق الشُّعَبَ الإيمانية القلبية، ويحمي القلوب والعقول من الزيغ والانحراف، فالطريقة المثلى أن نتعرف على الله تعالى بما عَرَّفَنا من كتابه القويم وهدي رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

البحث الثاني: أُسُسُ معرفةِ صفات الله تعالى:

وقبل الوقوف على الآيات والأحاديث المتعلقة بما نذكره من صفات الله سبحانه وتعالى لا بد لنا من ذكر الأسس التي نبني عليها معرفتنا لتلك الصفات حتى يكون إيماننا بصفات الله أقرب إلى إيمان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ﷺ .

وهذه الأسس هي:

١- أنْ نؤمن بما أخبر الله تعالى به من صفاته، وما أخبر به رسوله ﷺ فنثبت ما ثبت بالوحي الإلهي، وننفي ما نفاه .

٢- أنْ نُنَزِّه اللهَ تعالى عن المشابهة لصفات المخلوقات فهو سبحانه لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى / ١١] فوجوده ليس كوجودنا، وعلمه ليس كعلمنا، وكلامه ليس ككلامنا، ورحمته ليست كرحمتنا، وكذلك سائر صفاته .

لكن الدكتور مأمون ذهب إلى أنَّ الضمير راجع للإنسان الجنين يخرج من رحم أمه بعد أن كان مستقراً في رحمها في آواخر مدة الحمل بين ظهرها وعظام صدرها، وذكر أدلة ذلك ووضحه بالرسوم العلمية .

٣ – أنْ نعلم أننا عاجزون عن معرفة حقيقة صفاته كما أننا عاجزون عن معرفة ذاته عزَّ وجلَّ [١٩] .

٤ — أن نعتمد على منهج القرآن الكريم، لا على طريقة الفلاسفة وعلم الكلام التي حذر منها الراسخون في العلم، لما رأوا ما فيها من آثار سيئة [٢٠] .

---

(١٩) قد أرشدنا الله إلى أن نعرف هذا العجز فقال عز وجل: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ **[طه/١١٠]** وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ **[الحج/٧٤]** .

الإنسان اليوم بعد أن بلغ ما بلغ من المعرفة، يعلم أنه يتصف بصفات من الحياة والموت، والرضى والغضب، والسرور والحزن، والنوم واليقظة، وغير ذلك، ولكنه مع معرفته لذلك يجهلُ هذه الصفات، ولا يدرك حقائقها وأسرارها .

وهكذا معرفتنا لصفا ٠ت بقية المخلوقات؛ فقد كان جبريل ينْزل بالوحي على رسول الله ﷺ فيتلو عليه القرآن الذي يسمعه رسول الله ﷺ، ولكن الصحابة ﷺ لا يسمعونه ولا يدركونه .

وأخبرنا سبحانه عن سماع سليمان ﷺ لكلام النملة، ونحن لا نعرف حقيقة كلامها ولا ندركه.

فإذا كنا عاجزين عن إدراك حقيقة كلام النملة في قولها: ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ **[النمل / ١٨]** فنحن عن معرفة حقيقة كلام الله تعالى أكثر عجزاً، وإذا كان هذا عجزنا عن معرفة صفاتنا وصفات المخلوقات فكيف بعجزنا عن معرفة صفات الخالق جل جلاله؟ .

وقد ضلَّ فيما تقدم من العصور أناس في صفات الله تعالى مبتعدين عن الضوابط القرآنية، الْمُبَيَّنَةِ بأنوار السنة النبوية، فأنكر بعضهم بعض ما ذكره الله من صفاته في القرآن، ووصل بعضهم الآخر إلى تشبيه الله تعالى بخلقه .

وقد ابتعد الفريقان عن تدبر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ **[الحج / ٧٤]** فيما نَفَوْا، وفيما أثبتوا، ولو أن هؤلاء وأولئك التزموا بالمنهج القرآني الذي كان عليه خيار هذه الأمة، أصحابُ النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنهم لَمَا ابتعدوا هذا الابتعاد عن الصراط المستقيم، في أمر من أعظم الأمور، وهو معرفة صفات الله تعالى .

(٢٠) وقد نقل النووي في مقدمة المجموع في فصل آداب الفتوى عن ابن الصلاح رحمهما الله تعالى أن المفتي يمتنع عن الفتوى في مسائل علم الكلام، ويمنع مستفتيه من الخوض فيه، أو في شيء منه، وإن قلَّ، وذكر أن ذلك هو الصواب من أئمة الفتوى وهو سبيل سلف الأمة وأئمة المذاهب المعتبرة وأكابر العلماء والصالحين .

وذكر أنَّ الغزالي كان على هذه الطريقة في آخر أمره وأنه كان شديدَ المبالغة في الدعاء إليها والبرهنة عليها، ثم نقل مثل ذلك عن شيخه إمام الحرمين وغيره . **[المجموع ١ / ٨٧ – ٨٨]** .

٥- أن نترك الخوض والجدل في تفسير صفات الله تعالى، التي قد يُتَوَهَّمُ فيها ما لا يليق بالله تعالى، مع الابتعاد عن التأويل (٢١) .

ومع ابتعادنا عن التأويل، وتأسينا بإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى الذي تألَّمَ كثيراً وتَفَصَّدَ جبينُه عرقاً عندما سُئِل عن الله سبحانه وتعالى: كيف استوى؟ والذي اعتبر هذا السؤال بدعة، وطَرَدَ السائل من مجلسه (٢٢) أحب أن أقول للإخوة الكرام الحريصين على اتباع السلف الصالح: لا يصح أن نعتبر كلَّ تأويل بدعةً ومخالفةً للسلف؛ فقد ثبتت عن السلف بعض التأويلات (٢٣) .

---

(٢١) وهذا الابتعاد عن التأويل، وعن الخوض في تفسيرها، هو العمل بما اختاره أئمة الهدى من سلف الأمة وخلفها ونَقَلَهُ عنهم أهل العلم، وممن نقل كلامهم الإمام الترمذي رحمه الله تعالى حيث ذكر أنَّ صفات الله تعالى **يُؤمَنُ بِهَا ولا يُتَوَهّمُ ولا يُقَال كَيْفَ، ورواه عن الإمام مالكِ بن أَنسٍ وسُفيانَ بن عُيَينَةَ وعَبدِ الله بن المباركِ رحمهم الله تعالى وأَنهُم قَالُوا في هَذِهِ الأَحاديثِ: أَمِرُّوَها بلا كَيفَ، قال الترمذي: وهَكَذَا قَولُ أَهلِ العلمِ مِن أَهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَة** اهـ

[سنن الترمذي / كتاب الزكاة /باب فضل الصدقة] .

وهكذا روى البيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأئمة فقال: **سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيفية** اهـ .

ثم روى عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: **كل ما وصف الله تعالى من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه** اهـ **[الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي / ٩٣]** وبهذا نكون متبعين جماهير السلف .

هذا وإنَّ الخَلَفَ متبعون للسلف في ذلك، وهذا هو الأسلم والأحكم .

وقد شاع في كلام بعض أهل العلم أن عدم التأويل هو مذهب السلف وهو أسلم، وأن التأويل هو مذهب الخلف وهو أحكم، وهذا كلام فيه نظر لما يلي:

١- أنَّ التأويل وعدمه كلٌّ منهما ثبت عن السلف وعن الخلف .

٢- أن الخلَف هم في الواقع أتباعٌ للسلف في الخير الذي كانوا عليه، وإلا لما كانوا خلَفاً .

٣- أن السلف وأولهم الصحابة ﷺ هم الأعلم والأحكم وخصوصاً في الإيمان ومعرفة الله تعالى فهم أعظم وأصح إيماناً .

(٢٢) [البيهقي بسنده في كتابه "الاعتقاد" ص ٩١]

(٢٣) لقد أفرط كثير من المتكلمين عن أمور الدين فأنكروا كل تأويل واعتبروا كل من أول آية أو حديثاً من الضالين المنحرفين، وهذا غلط كبير؛ فالمسألة فيها تفصيل:

فالتأويل الناتج عن غلبة الهوى، المخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ وكان عليه التابعون ضَلالٌ، وذلك كتأويل بعض أهل الضلالة عندما غلبهم الهوى وحكموا عقولهم القاصرة في آيات القرآن

البحث الثالث: الإيمان بما فُصِّلَ في القرآن والسنة من صفات الله تعالى:

مع إيماننا بالله تعالى الإيمان الإجماليَّ أنه هو الإله ولا إله سواه، المتصف بصفات الكمال التي تليق بعظمته، والتي هي فوق مدارك الخلق، وأنه يستحيل عليه كل صفة من صفات النقص، وبعد معرفتنا لأُسُسِ معرفةِ صفات الله تعالى نُقْبِلُ إلى كتاب الله تعالى نقتبس من ضيائه ومن سنة رسوله ﷺ معرفةً لصفات ربنا سبحانه فيها جانب من التفصيل نضيء به عقولنا وقلوبنا [٢٤] .

الكريم، فأنكروا رؤية المؤمنين لربهم وأولوا قولَه تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ **[القيامة / ٢٢ و٢٣]** فقالوا: معنى: ﴿ **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، أي ينتظرون نِعَمَ الله التي يكرمهم بها، وطعنوا في الأحاديث التي تُثبتُ ما أنكروه، وإن بلغت أعلى درجات الصحة .

ومثل هذا ما قرأته من تأويل بعض الضالين المعاصرين الذين يحرفون معاني القرآن ويزعمون أن ظاهره غير مراد، وأن القرآن رموز، كإنكارهم رحلة موسى إلى الخضر عليهما الصلاة والسلام، وأن الرجل الذي لقيه موسى هو نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، وادعائهم أن ما ذكر من اللقاء بينهما إنما هو رمز لتوافق الرسالتين .

أمَّا التأويل القريب الذي جاء مثله عن السلف الصالح فلا حرج فيه؛ فقد ثبت عن بعض السلف وعن أناس من كبار علماء الأمة تأويلاتٌ متعددة، فالتأويل القريب الذي يوافق كلام الراسخين في العلم، ويوافق تأويل الثقات لا حرج فيه .

ومن أمثلة ذلك:

- قول الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: باب تفسير سورة القصص ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ** ﴾ : إلا مُلْكَه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله تعالى .

- قول الإمام الطبري في تفسير ﴿ **واللهُ مِن وَّرَائِهِم مُّحِيْطٌ** ﴾ : بأعمالهم، مُحْصٍ لَهَا، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شيءٌ، وهو مجازيهم على جميعها.

- قول ابن كثير في تفسير ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ أيْ مُطَّلِعٌ عليهم، يسمع كلامَهم وسرهم ونجواهم، ثم قال: حكى غير واحد الإجماعَ على أن المراد بهذه المعيةِ معيةُ علمه تعالى .

- قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ** ﴾ أي جاء ثوابه **[البداية والنهاية ١٠ / ٣٢٧]** .

(٢٤) إنَّ التدبر لآيات القرآن الكريم وللأحاديث النبوية التي ذُكِرَتْ فيها صفات الله تعالى وأسماؤه الحسنى يحيي القلوب، ويصلحها ويداويها من أمراضها، ويدفع المؤمن إلى التحقق بشعب الإيمان في ظاهره وباطنه، وفي أقواله وأفعاله وأحواله .

وأبدأ بأهَمِّ وأول ما كان يركز عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم لأقوامهم، وهو توحيد الله سبحانه، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ **[الأنبياء/ ٢٥]** .

وقد كانت دعوة كلِّ واحد من الأنبياء ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ **[الأعراف/ ٥٩]** .

ولذلك سيكون الكلام في الوحدانية أوسع من الكلام في غيرها من صفاته سبحانه وتعالى، وقد أ.طلق العلماء على علم العقيدة اسم: **[علم التوحيد]** لأن الإيمان بـ **لا إله إلا الله** أهم جوانب الإيمان .

وحدانية الله تعالى:

الله تعالى هو الإله ولا إله سواه

ونبحث في هذه الصفة في جانبين:

الجانب الأول: أن الله سبحانه هو وحده الإله الخالقُ والمالك لكل شيء .

وأنه وحده المستغني عن كل شيء، وكل شيء مفتقرٌ إليه .

وأنه بيده ملكوت كل شيء، وهو المتصرف بكل ما في هذا الكون، يؤتي الملك من يشاء وينْزِعُه ممن يشاء، بيده العطاء والمنع، وبيده أرزاق العباد، يُوَسِّعُها لمن يشاء ويُضَيِّقُها على من يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه .

الجانب الثاني: وهو لازم للأول: أنه سبحانه هو وحده المستحق للعبادة، ولا يستحق العبادة أحد سواه، فهو المعبود بحق يُعبدُ ولا يُعبدُ أحدٌ سواه .

وأنه بيده وحده التشريع، وهو وحده الذي يُحلُّ الحلال ويُحرِّم الحرام ، وله وحده الطاعة المطلقة، فلا طاعة لمخلوق في معصيته، وكل من في السموات والأرض عبيده الضعفاء، فلا يُعتمد ولا يُتوكلُ إلا عليه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ **[الزمر / ٦٤]** .

وقد علمنا القرآن هذين الجانبين من التوحيد في آياته الكثيرة، وأجْمَلَ ذلك في السورة التي نقرؤها في كل ركعة، وهي أعظم سورة في القرآن الكريم .

فهو سبحانه يذكرنا بالأمر الأول في الآيات: ﴿ **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ .

ويذكرنا بالأمر الثاني في الآيات: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾ .

وحدانية الله تعالى في ضياء القرآن:

لما كان الجانب الأول من الإيمان بوحدانية الله تعالى أساساً للجانب الثاني، كان من الحكمة أن نقف مع أدلة القرآن التي تَبْنِي في قلوبنا وعقولنا ذلك الأساسَ العظيم بالأدلة العلمية العقلية التي توصل الإنسان إلى اليقين المبني على الدليل والبرهان .

والآيات في ذلك كثيرة جداً، نقف مع بعضها، متأملين متدبرين، ونبدأ مع أول سورة الفرقان، التي نجد فيها الربط بين وحدانيته سبحانه وبين خلق الكون وحكمته في تقدير كل شيء، وإنَّ النظرَ في مقادير الأشياء من أعظم الآيات، وخصوصاً في هذا الزمان الذي تكشفت فيه المقادير أكثر، وظهرت حكمته تعالى فيها بشكل لم يسبق له مثيل .

قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان/ ١-٢] .

إن انتظامَ وتلاؤمَ سيرِ هذا الكون الواسع في أجزائه الصغيرة كالذرات والخلايا وما تركب منها، وفي أجزائه الكبيرة كالكواكب والنجوم والمجرات، وما بين ذلك مما لا نشاهِدُ ولا نعرفُ إلا بعضَه من عوالم البَرِّ والبحر، مع كثرة أنواع المخلوقات واختلافها، واختلاف أنظمتها، ودقة المقادير فيها، لَيَدُلُّ أصحاب العقول على أنَّ لهذه المخلوقات إلهاً واحداً خلقها ويسيرها بحكمته كما يريد .

إذا نظرنا إلى مدرسة أو معمل أو مؤسسة أو دولة قد تعدد فيها من يحكمها ويقدر على التصرف فيها عرفنا أنها تخرب وتفسد .

والقرآن الكريم يبين هذا المعنى بأوضح الكلام وأقوى الأساليب، في آياته العظمى كقوله عز وجل: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى**

بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون / ٩١] وقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء / ٢٢] .

ومما يبين وحدانية الله ما يُذَكِّرُ الله به الناس أنَّه سبحانه هو وحده الخالق لكل شيء، ولا خالق سواه قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) [فاطر/ ٣] .

وقال عز وجل: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد / ١٦] .

فالإله الحق هو الخالق لكل شيء، فأين معنى الألوهية في سواه؟ وماذا خَلَقَت تلك المعبوداتُ التي عُبِدتْ من قبل الجاهلين؟ .

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان / ١٠- ١١] .

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف / ٤] .

الشرك بالله ليس له أساس علمي:

إنَّ عقيدة الإيمان بالله تعالى وحده المنافية لجميع عقائد المشركين هي العقيدة الوحيدة التي يمكن بناؤها على الدليل والبرهان، وقد عَلَّمَنَا القرآن أن نقول للمشركين: هاتوا برهانكم، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل / ٦٤] .

وقال سبحانه: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٢٤] .

كلُّ شيء فينا وكلُّ شيء حولنا يدلُّ على الله تعالى وعلى أنه إله واحد؛ فإيماننا مبني على البراهين، فلهذا نستطيع أن نقول لمخالفينا في عقيدة التوحيد: هاتوا برهانكم .

ومن لا برهان عنده في عقيدته لا يقول لمن يخالفه فيها: هاتوا برهانكم .

ولا يخالفنا في عقيدة التوحيد إلا المشركون والملحدون، وكل من الشرك والإلحاد لا دليل عند أهلهما، بل ولا يمكن أن يكون في ذلك أيُّ دليل .

الشرك قولٌ باطل وتصورٌ غير صحيح:

إنَّ تصور المشركين لمعنى الألوهية تصورٌ غير صحيح .

فالإله هو المستغني عن كل شيء، وكلُّ شيء مفتقر إليه، وما ليس كذلك ليس إلهاً، هذا هو التصور الصحيح لمعنى الألوهية .

ومن أدرك هذا المعنى الصحيح لمعنى الألوهية أدرك الحقائق العلمية التالية:

١- الإله خالق كل شيء .   ٢- الإله ليس مخلوقاً .

٣- الإله لا يحتاج إلى شيء .   ٤- الإله يحتاج كلُّ شيء إليه .

والمعبودات التي عبدت في تاريخ البشر كلٌ منها مخلوق لا خالق، وكلٌ منها فقير محتاج؛ فكيف يكون إلهاً؟ .

ويتبين لنا مما تقدم أن تصور المشركين لمعنى الألوهية باطل غير صحيح .

الإله لا يُتَّخَذُ اتخاذاً:

فكلُّ ما عبد من دون الله تعالى ليس إلهاً، ولكنه اتُّخِذَ إلهاً، والإلهُ لا يُتَّخَذُ اتخاذاً.

يمكن للإنسان أن يتخذ صديقاً أو عدواً، ويتخذ معلماً أو شريكاً؛ إذ الإنسان الذي تتخذه يمكن أن يتصف بصفات الصديق أو العدو أو المعلم أو الشريك .

ولكن لا يمكن أن يُتَّخَذَ الإله اتخاذاً؛ لأن النقاط الأربع السابقة التي تعطي الإنسان التصور الصحيح لمعنى كلمة الإله لا يمكن أن تكون في غير الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ** ﴾ [يس/ ٧٤و ٧٥] ؛ فآلهتهم المزعومة عاجزة عن نصرة العابدين، بل هي تحتاج إلى العابدين لها كي يحموها .

الله تعالى فعال لما يريد وهو على كل شيء قدير :

فالله تعالى له الإرادة المطلقة، وهو الفعال لما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، إرادته تعالى فوق كل إرادة .

وله القدرة المطلقة فهو على كل شيء قدير، فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ فلا يمكن أن يكون، ويليق بالموفقين أن يتدبروا الآيات التالية التي يظهر فيها هذا الجانب الإيماني، قال تعالى:

- ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف/ ٥٤] .

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك/ ١] .

- ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل/ ٤٠] .

- ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس / ٨٢-٨٣] .

- ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[البروج/١٤- ١٦] .

- ﴿ وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد/ ٤١] .

- ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس / ١٠٧] .

- ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر/ ٢] .

الله خالق كل شيء ولا خالق غيره :

فالأرض وما فيها، والسماوات وما فيهن، وجميع الكائنات مما يعرفه الإنسان ومما لا يعرفه، كل ذلك مخلوق، والله تعالى هو وحده الخالق .

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر / ٣] .

- ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [غافر/ ٦٢] .

– ﴿ **ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ **[الأنعام/ ١٠٢]** .

الله هو الخالق وللعباد الكسب :

الله تعالى هو الخالق للعباد، وهو الخالق لأعمالهم، فإذا نطق العبد أو تصرف بأمر فإن هذا النطق والتصرف ينسب إلى الله تعالى خلقاً وينسب للعبد كسباً .

ومن حكمة الله تعالى أنه خلق الإنسان وجعل له إرادةً واختياراً يتمكن بهما من كسب الإيمان والطاعات والله تعالى يثيبه عليها، كما يتمكن من اكتساب الكفر والسيئات ويستحق أن يعاقبه الله تعالى عليها .

فإذا اختار العبد الإيمان والطاعة وأثابه الله فإن الفضل في ذلك لله سبحانه؛ لأنه هو الذي خلق العبد وأعماله، ومع الثواب يكرم الله تعالى المؤمنين الصالحين بفضل آخر حيث ينسب هذا الفضل إليهم ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ **[الأعراف/ ٤٣]**.

وإذا اختار العبد الكفر أو المعصية وعاقبه الله تعالى فقد عاقبه بعدله؛ لأن العبد اكتسب السيئات بإرادته واختياره ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ **[الأحقاف/ ٣٤]** .

اختيارنا في الأمور التكليفية من البديهيات :

وإذا زَلِقَ بعض الناس فوقعوا في مستنقع الجدل حول كون الإنسان مخيراً في الأمور التكليفية أم لا [(٢٥)] قلنا لهم:

---

(٢٥) إن الأمور المرتبطة بالإنسان نوعان:

الأول: ما جعل الله تعالى للإنسان فيه اختياراً وهو كل ما يرتبط به من الأمور التي تدخل تحت أقسام الحكم التكليفي، الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام .

الثاني: ما لم يجعل الله تعالى فيه للإنسان اختياراً وهو ما عدا ذلك، فكل واحد منا ذكر أو أنثى، طويل أو قصير، أبيض أو أسمر لا خيار له في تلك الصفات، ولذلك لا تدخل هذه الصفات في أقسام الحكم التكليفي، الواجب أو المندوب أو المباح أو المكروه أو الحرام .

إن اختيار الإنسان من أوضح الحقائق، بل هو من البديهيات يلمسه كل عاقل من نفسه .

يلمسه من نفسه ويدرك أنه مختار عندما يتوضأ أو يسبِّح الله ويحمده أو يدفع الزكاة، وكذلك عندما يسرق أو يسب أو يغتاب .

الرد على من يدعي عدم اختيار العبد :

وإذا ادعى أحد من أهل الضلال بعد هذا البيان أن الإنسان غير مختار قلنا له:

إن من حكمة الله تعالى كما بين في كتابه القويم أن لا يكلف نفساً إلا وسعها فكيف يتصور العاقل أنه سبحانه أجبره على الكفر والمعاصي وكلفه بتركها.

ويزداد الأمر بياناً بمعرفة الحكم الشرعي الثابت في القرآن الكريم من عدم مؤاخذة من نطق بكلمة الكفر مكرهاً، وذلك في الآية التي نزلت بسبب عمار ﷺ ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ **[النحل/ ١٠٦]** ومن المعروف أنه عندما نطق بكلمة الكفر مكرهاً كان له جانب من الاختيار ومع هذا الاختيار فإنَّ الله تعالى لم يؤاخذه بما نطق .. فكيف يؤاخذ من ليس له اختيار أصلاً كما يدعي بعض أهل الضلالة [٢٦] وستأتي زيادة بحث في هذا الأمر عند الكلام عن الإيمان بالقدر .

---

(٢٦) قد يقرأ طالب العلم ويظن أنه فهم وهو لم يفهم وربما تكلم بكلام لا يستطيع هو أن يتصوره، ومن ذلك ما سمعته من بعض طلبة العلم يقولون: إنَّ العبد ليس مجبوراً وليس مختاراً، أي في الأمور التكليفية، وهذا كلام متناقض غير صحيح بل باطل، وسبب هذا فهمهم غير الصحيح للشطر الأول من قول صاحب الجوهرة: **فليس مجبوراً ولا اختيارا وليس كلاً يفعل اختيارا .**

حيث ظنوا أن المعنى ليس مجبوراً ولا مختاراً، لكن مراد الناظم أن ينفي أمراً واحداً هو أن العبد (مجبور لا خيار له) ويثبت أنه مختار .

الله العليم الحكيم:

الله تعالى عليم: لا يخفى عليه شيء في الدنيا ولا في الآخرة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء مهما كان صغيراً أو كبيراً، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .

أحاط بكل شيء علمُه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، يعلم السر وأخفى ويعلم ما في الصدور، يعلم ما كان وما يكون .

وهو الحكيم في خلقه:

خلق كل شيء فقدره تقديراً وأحسن كل شيء خَلَقَهُ، وعندما يفكر العاقل في نفسه أو في أيِّ شيء مما حوله فإنه يجد من الحِكَم ما لا يستطيع إحصاءه .

وإذا ظهرت جوانبُ من حكمته تعالى فيما مضى فقد ظهرت في عصرنا جوانب أعظم وأكثر في كل صغير وكبير من مخلوقاته مما بَهَرَ عقول العلماء (٢٧) .

---

(٢٧) لقد أرشدنا الله تعالى في القرآن الكريم إلى التفكير في المخلوقات كي نرى من آياته ما يزداد به إيماننا بمعرفة جوانب من حكمته وعلمه وعظيم صفاته، ومن شأن أولي الألباب وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ كثرة التفكير في تلك الآيات .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند النبي ﷺ ذات ليلة فقام نبي الله ﷺ من آخر الليل فخرج فنظر في السماء ثم تلا هذه الآية من آل عمران ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ **[آل عمران / ١٩٠ و ١٩١]** ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ ثم قام فصلى ثم اضطجع ثم قام فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية ثم رجع فتسوك فتوضأ ثم قام فصلى **[مسلم /٢٥٦]** .

والعلماء يقتدون برسول الله ﷺ ويفكرون، وبعضهم يفكر ويكتب، ومن الكتب التي طالعتها في هذا المجال واستفدت منها كتاب: **الحكمة في مخلوقات الله** لحجة الإسلام الغزالي، وكتاب: **أقسام القرآن** – جمع قَسَم – لابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى .

وما أعظم أن نهتم بالتفكير في آيات الله تعالى وحكمته في مخلوقاته مستفيدين من خصوصية عصرنا من حيث العمقُ العلمي عملاً بآيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ .

وإذا أردنا أن نرى جانباً من الحكمة الإلهية فلنقف مع بداية خلق الإنسان من هذا الماء المهين، وما أكثر جوانب التفكير في هذا الخلق، وما أعظمها، وأشير هنا إلى جانب واحد منها فقط، وهو الأمور الوراثية التي تنتقل من الأصل إلى الفرع وفي كثير من الحالات تنتقل من الأصل الأعلى إلى الفرع الأسفل دون أن

وهو الحكيم في أمرِه ونهيِه، وفي تشريعه:

حكيمٌ في تشريعه الكاملِ الذي يشمل كلَّ ما يتعلق بأمور العباد، أَمَرَ عبادَه ونَهَاهُمْ رحمةً لهم وإكراماً وشرع لهم ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة؛ فتشريعه أكملُ التشريع وأحكَمُهُ؛ إذ هو الأعلم بطبائع العباد وبما يناسبهم وبما ينفعهم أو يضرهم، والغافل الذي لم تظهر له حكمة الله تعالى في تشريعاته عليه أن يتذكر أنَّ الذي أنزل التشريعات سبحانه هو الذي نظم الكائنات .

ويليق بنا بعد هذا البيان أن نفتح قلوبنا لضياء بعض آيات القرآن الكريم التي يعرفنا الله تعالى بها علمه وحكمته:

- ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ / ٣] .

﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام/ ٨٣] .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة/ ٧] .

﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود/ ١] .

تظهر في الأصل الأقرب، وهذه الأمور الوراثية يصعب عدها وإحصاؤها، وكلُّها موجودة ضمن بُيَيْضة المرأة أو ضمن حيوان منوي صغير يبلغ من الصِّغَر ما لو جمعنا مئات منه لأمكن مرورها من ثَقْبِ الإبرة دفعة واحدة، وكل ما أشيرَ إليه في هذا الكلام هو أحد الجوانب الكثيرة المتعلقة بخلق الجنين .

هذا وما ذكرته من **الربط في التفكير بين الخلق والعلم** مما نفهمه من توجيهات القرآن في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يس/ ٧٩] وقوله عز وجلَّ: ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ﴾ [يس/ ٨١] وقوله سبحانه: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك/ ١٤] وقوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الحجر/ ٨٦] .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام/ ٥٩] .

﴿ اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد/ ٨-١٠] .

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك/ ١٣-١٤] .

الله هو الغني الحميد:

كل مخلوق محتاجٌ مفتقرٌ إلى الله تعالى، ومحتاج مفتقر إلى أمور كثيرة هيأها الله تعالى وسخرها له .

والله تعالى لا يحتاج إلى شيء، وهو الغني عن كل ما سواه، إذ كل ما سواه مخلوق ومفتقر إليه .

وهو الغني عن طاعة عباده، كلفهم بما أمرهم به وبما نهاهم عنه لمصالحهم، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم .

وهو الحميد الذي اتصف بكل كمال يليق به، وأسبغ على عباده نعمه ظاهرة وباطنة، وكل كمال وفضل راجع إليه، فهو سبحانه المستحق لجميع المحامد، ولا يستحق الحمدَ الحقيقيَّ أحدٌ سواه، وكل حمد لغيره مجاز لا حقيقة له؛ إذ الفضلُ له كلُّه، والخيرُ منْه كُلُّه .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يهلل بعد كل صلاة: « **لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ** » (٢٨) .

(٢٨) عن أبي الزبير قال: كان ابن الزبير رضي الله عنهما يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: « **لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** » وقال: **كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة [الإمام أحمد / ١٦١٥٠ ومسلم/ ٢٥٧٧]** .

ومما يبين هذا المعنى الحديث القدسي التالي: « **يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلاّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ** » .

[مسلم / ٢٥٧٧] .

ونجد هذا النور في الآيات التالية:

– ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [الحج/ ٦٤] .

– ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ [فاطر/ ١٥– ١٧] .

– ﴿ **هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمد/ ٣٨] .

الله هو الحي القيوم :

وهو سبحانه وتعالى الحيُّ الذي لا يموت، وهو الذي وهب الحياة لجميع الأحياء، يحيي ويميت .

وهو القيوم، يتصرف في كل شيء من الكون، يرزقه ويدفع عنه ويكلؤه ويحفظه ويدبر أمره، قال تعالى: ﴿ **اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] .

وقال سبحانه: ﴿ **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [غافر/ ٦٥] .

وقال عز وجلَّ: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً** ﴾ [الفرقان/ ٥٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ كان يقول: « .. **أعوذ بعزتك – لا إله إلا أنت – أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون** » [مسلم / ٢٧١٧] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: « **اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد لك مُلك السماوات والأرض**

ومن فيهن ...... » [البخاري / ١٠٦٩ومسلم / ٧٦٩] والقيُّوم والقيِّم بمعنىً واحدٍ .

الله هو الغفور الرحيم:

وهو الغفور، وسعت مغفرته جميعَ الخلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

ويقبل توبة التائبين، من الكافرين ومن عُصَاةِ المؤمنين، مهما عظمت ذنوبهم .

فإذا تاب الكافر فأسلم قَبِلَ الله توبته وإسلامه، وغفر له كل ذنب كان قد وقع فيه، وإذا ندم الفاسق فتاب توبة صادقة بشروطها غفر الله له جميع ذنوبه .

وفي الحديث القدسي: « **قَالَ اللَّهُ تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي** » [الترمذي/ ٣٥٤٠] .

ومن الآيات في ذلك:

- ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر /٥٣] .

- ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [النجم / ٣٢] .

- ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ** ﴾ .
[الحجر/ ٤٩- ٥٠]

- ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الرعد / ٦] .

- ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأعراف / ١٥٣] .

وهو الرحيم، وسعت رحمته كل شيء، يرحم عباده في الدنيا، ورحمته في الآخرة أعظم، قال ﷺ : « **إنّ للّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخّرَ اللّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة** » [البخاري / ٥٦٥٤ ومسلم / ٢٧٥٢] .

ومن الآيات في هذا :

- ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة ١٦٣] .

– ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف/١٥٧] .

– ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر/ ٧] .

- ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام/ ٥٤] .

– ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف/ ٥٨] .

الله السميع البصير:

وكما آمنا وعرفنا أن الله بكل شيء عليم، فإننا نؤمن ونعرف أن الله تعالى سميع بصير، وكما لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فكذلك لا يعزب عن سمعه وبصره مثقال ذرة، قال تعالى:

– ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان ٢٦–٢٨] .

– ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة/ ١] .

– ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه/ ٤٥ –٤٦] .

وبأنوار الإيمان بسمع الله تعالى وبصره وبيقظة القلوب إلى أنَّ سمع الله وبصره متعلقان بكلِّ قولٍ أو فعل أو نية أو حالٍ للعبد صلحت وعُمِرَتْ قلوب الطيبين بالحياء من الله تعالى والأدب معه، نسأله تبارك وتعالى أن يلحقنا بهم .

من صفات الله تعالى الكلام :

ومما جاء به كتاب الله تعالى من صفات الكمال التي تليق بعظمة الله سبحانه وتعالى صفة الكلام، قال تعالى: ﴿ **وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً** ﴾ [النساء/ ١٦٤] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ [الأعراف/ ١٤٣].

عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « **ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولوبشق تمرة** » .

[البخاري ٧٠٧٤/ ومسلم / ١٠١٦]

الله تعالى هو الأول والآخر :

فهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد/ ٣] .

وكان رسول الله ﷺ يناجي ربه إذا أوى إلى فراشه فيقول: « **اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين وربنا ورب كل شيء، فالقَ الحب والنوى مُنْزلَ التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء** » [**مسند أحمد ٢ / ٥٣٦ ومسلم ٢٧١٣]** .

الله ليس كمثله شيء :

آمنا بالله عز وجل وعرفنا أنه تعالى متصف بصفات الكمال التي تليق بعظمته، مما جاء به كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

لكن معرفة الإنسان لصفاته عز وجل لا تشبه معرفته لصفات الخلق، فهو سبحانه في صفات العظمة التي تليق بجلاله فوق ما يتصور المتصورون .

والخلقُ كلهم مهما ارتفع شأنهم عاجزون عن تصور عظمته، ومعرفة حقيقة صفاته، قال الله تعالى: ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ [الحج / ٧٤] وقال سبحانه: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** ﴾ [طه/ ١١٠] .

مع إيماننا بالله تعالى وبصفاته يجب أن نؤمن أنَّ الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكذلك صفاته التي أخبرنا سبحانه وتعالى بها، نؤمن بها ونؤمن أنها فوق ما يتصور المتصورون من العظمة، ومن هذه العظمة عدم المشابهة لأيِّ مخلوق .

فعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته وحكمته ورضاه وغضبه ومحبته لعباده الصالحين وغير ذلك من الصفات التي جاءت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة كل ذلك لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقات قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ . [الشورى/ ١١]

مُجمل الإيمان بجميع صفات الله تعالى والعناية بالجانب القلبي من الإيمان :

تقدم معنا الكلام على وجود الله تعالى وأنه متصف بالوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحكمة والغنى والمغفرة والرحمة والسمع والبصر والكلام والحياة وأنه تعالى هو الأول والآخر وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيءٌ .

ونكتفي الآن بما تقدم ذكره من تفصيل في صفات الله تعالى .

ونقول بعد هذا: كل ما ورد في القرآن والسنة مما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات نؤمن بها على المنهج والأسس القويمة التي تقدمت معنا وهي :

١- نثبت ما ثبت بالوحي الإلهي وننفي ما نفاه .

٢- نُنَزِّهُ اللهَ تعالى عن المشابهة لصفات المخلوقات .

٣ — نؤمن بأننا عاجزون عن معرفة حقيقة صفاته .

٤ – نعتمد على منهج القرآن، لا على طريقة الفلاسفة وعلم الكلام.

٥ – نترك الخوض في تفسير أو تأويل صفات الله تعالى .

ضرورة الاهتمام بالجانب القلبي والسلوكي :

هذا الذي تقدم معنا من أبحاث الإيمان بالله تعالى متعلق بالجانب العقلي، وهو أساس الإيمان، ومع بناء هذا الجانب العقلي من الإيمان الذي يعتبر القواعد المتينة لهذا الدين، لا بد من بناء جانبين عظيمين من ديننا على هذه القواعد، وهما الجانب القلبي والجانب السلوكي العملي.

وكذلك ينبغي أن نعلم أن الجانب القلبي أساس مهم للجانب السلوكي (٢٩)

ويدحل في حقيقة الإيمان أمور قلبية وسلوكية كثيرة تُعتبَر شُعَباً للإيمان، قال النبي ﷺ: « **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ** » [البخاري / ٩ ومسلم/ ٣٥] .

والموفقون هم الذين يوفقهم الله تعالى ويكرمهم بالتحقق بهذه الشعب الإيمانية، ولذلك فإن من أهم ما نحرص عليه أن نسعى مستعينين بالله تعالى في تنوير قلوبنا بالأنوار الإيمانية .

ومما يعين على ذلك بَعْدَ الحرص عليه والاستعانة بالله عز وجل تَدَبُّرُ القرآن الكريم وما فيه من أنوار أسمائه وصفاته عز وجل، والعِبَرُ المأخوذة من قصص القرآن الكريم ومن آياته التي تذكرنا بما يكون في عالم الآخرة .

ويضاف إلى ذلك سقاية القلوب بالأذكار والأدعية التي سُقِيَتْ بها قلوب السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم قدوتنا وخير هذه الأمة (٣٠) .

ومما يفيدنا في هذا الجانبِ الطيبِ النظرُ في سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه ﭫ والتابعين والعلماء العاملين الربانيين في حياتهم العامة، وفي أحوالهم المتعلقة بصلاح بَوَاطِنِهم وحُسْنِ عبادتهم .

---

(٢٩) فبصلاح الجانب القلبي يصلح الجانب السلوكي العملي ويسهل على المؤمن القيام بالأعمال الصالحة، والابتعاد عن المعاصي والمحرمات قال رسول الله ﷺ « **أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ** » **[البخاري / ٥٢ومسلم / ١٥٩٩]** ويكون هذا الصلاح القلبي الطريقة الموصلة إلى التحقق بشعب الإيمان الظاهرة والخفية.

(٣٠) وإذا أردت المزيد في هذا الجانب وجدته في الملحق رقم (٥) في آخر الكتاب .

الإيمان بأن محمداً ﷺ رسول الله

هذه هي العقيدة الأساسية الثانية التي لا يصح الدخول في الإسلام إلا بها، وهي وإن كانت داخلة في ركن الإيمان بالرسل فلا بد من إفرادها بالدراسة؛ لأنها أساس لتفصيلات جميع جوانب الإيمان وأركانه .

هذا وإن إيمان الإنسان المقبول عند الله تعالى يتوقف على الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ، بعد الإيمان بأنه لا إله إلا الله، ولذلك جُعِلَ بابُ الدخول في هذا الدين شهادةَ أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله .

وكما يجب أن تكون العقيدةُ الأولى (**لا إله إلا الله**) مبنيةً على الدليل والبرهان فكذلك العقيدة الثانية (**محمد رسول الله**) .

وكما بُنِيَتْ العقيدة الأولى على أعلى درجات المعرفة فكذلك العقيدة الثانية.

من دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ :

دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ أكثر من أن تُحصر

منها: **سيرته قبل النبوة .**

ومنها: **سمو وكمال العقيدة التي جاء بها .**

ومنها: **سُمُوُّ وكمالُ التشريع الذي جاء به .**

ومنها: **المعجزات الكثيرة التي أيده الله بها**، وشاهدَها أهلُ عصره، فعرفوا بها نبوته، وأيقنوا أنه رسول الله ﷺ وعَرَفَها من جاء بعد ذلك العصر، وهذه المعجزات تشبه ما أيد الله تعالى به الأنبياءَ السابقين عليهم الصلاة والسلام، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما كثير من المعجزات كإخباره بالمغيبات وتكثير الطعام القليل، ونبع الماء من بين أصابعه وعشرات المعجزات الأخرى [٣١] .

معجزة القرآن الكريم :

وأعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنْزيل من حكيم حميد، وعظمة هذه المعجزة تتناسب مع عظمة رسالته؛ حيث جعلها الله تعالى للناس كافة ولكل العصور التي بعد عصره ﷺ .

---

(٣١) و في الملحق رقم (٦) نماذج من هذه المعجزات مع مستنداتها .

وهذا من حكمة الله تعالى؛ لتكون معجزة دائمة منتشرة، لا يَحُدُّها زمان ولا مكان، تتضمن وجوهاً من الإعجاز، تناسب كل الناس على اختلاف خصوصياتهم ومعارفهم .

وجوه من إعجاز القرآن:

وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، ومنها:

١- أسلوبه الفريد المرتبط بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة .

٢- إخباره بالمغيبات الماضية مع تفصيلها وبيانها .

٣- إخباره بالمغيبات المستقبلة، ومنها عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله .

٤- تأثيره وفاعليته في القلوب .

٥- إعجازه العلمي

مناسبة الإعجاز العلمي لعصرنا أكثر:

وهذا الوجه يناسب هذا العصر وما بعده أكثر من العصور الماضية؛ لأنه تتجدد فيه الآيات كلما زاد التطور في التقدم العلمي، كما بين القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت/ ٥٣] .

ويظهر هذا الإعجاز العلمي في جانبين:

آ- استحالة وجود آية قرآنية تتعارض مع أيَّةِ حقيقة علمية صحيحة .

ومَرَدُّ ذلك إلى أن مُنَزِّلَ القرآن هو خالق الأكوان، وهو سبحانه الأعلم بما خلق، فلا يمكن أن يُنْزِلَ آيةً قرآنية تتناقض مع علمه عز وجل .

ومَنْ وجد شيئاً من هذا فهو إما جاهل بالآية، وإما جاهل بالقضية العلمية (٣٢) .

---

(٣٢) من المهم في هذا الأمر التفريق بين النظريات التي لم يبرهن على صحتها وبين الحقائق التي ثبتت بدلائلها وبراهينها، وأوضح ذلك بقضيتين تتعلقان بالأرض: الأولى النظريات المختلفة عن كيفية بداية تَكَوّن الكرة الأرضية التي تكلم فيها الباحثون بنظريات متناقضة فهذا النوع لا علاقة له ببحثنا هذا؛ لأنه ليس علماً، والقضية الثانية كروية الأرض التي قامت على صحتها الأدلة والبراهين، فإذا تكلمنا عن استحالة تناقض الآيات القرآنية مع العلم فمرادنا الحقائق العلمية التي ثبتت بالأدلة والبراهين، وفي هذا النوع إذا رأيت من يتوهم وجود هذا التناقض فهو جاهل .

ب – ظهور حقائق علمية، لم يعرفها الإنسان في الأزمنة السابقة .

وبتدبر وتفهم القرآن وجدها الإنسان ظاهرة واضحة في آياته، فمن أينَ أتى بها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام لو لم تكن من عند الله تعالى(٣٣) .

فالذي يفهم من قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء** ﴾ **[البقرة/ ٢٢]** أنَّ الأرض غير كروية فقد فهم الآية على غير حقيقتها .

والذي فهم من قول علماء الفلك : (**الشمسُ لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور حولها**) أنَّ الشمس ثابتة لا تتحرك فقد فهم القضية العلمية على غير حقيقتها .

(٣٣) أذكِّر ببعض الأمثلة الداخلة تحت قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ **[فصلت / ٥٣]** :

١– لقد اكتشف الإنسان في هذا العصر كروية الأرض، وهذا ظاهر كالشمس في قوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** ﴾ **[الزمر/ ٥]** الذي يبين أن تعاقب الليل والنهار تكوير .

٢– اكتشاف أنَّ الإنسان كلما ارتفع في طبقات الجو العليا شعر بضيق الصدر، ولم يكن الإنسان في عصر نزول القرآن الكريم يدرك شيئاً من هذا، ولا يفكر فيه، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ **[الأنعام/ ١٢٥]** .

٣ – اكتشاف أنَّ العظام تتكون قبل اللحم، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ **[المؤمنون/ ١٤]** .

ومن أراد المزيد من هذه الأمثلة فإنه يجدها في **كتب هارون يحيى التركي، وكتب زغلول النجار المصري، وكتاب الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة** المترجَمِ عن الفرنسية لموريس بوكاي الفرنسي مع تحذير من بعض الأخطاء في آخره عندما تكلم عن السُّنَّة .

الركن الثاني الإيمان بالملائكة

ومما جاء به ﷺ أن نؤمن بالملائكة، وهم مخلوقات نورانية خلقهم الله تعالى من نور، كما خلق الإنسانَ من طين، والجنَّ من نار، قال ﷺ : « **خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمّا وُصِفَ لَكُم** » [مسلم /٢٩٩٦]. قال سبحانه: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة/ ٢٨٥] .

والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان التي بينها النبي ﷺ بقوله : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** » .[مسلم / ٨].

وإيماننا بالملائكة جانب من جوانب الإيمان بالغيب، الذي نؤمن به إجمالاً في المجمل، وتفصيلاً في المفصل .

ولا ينبغي أن نخوض باجتهادنا في تفصيل أمورهم، ولا في أمور الغيب الأخرى؛ لأنه ليس عندنا أسسٌ نبني عليها اجتهادنا فيها، **وهذا من العافية في ديننا** [٣٤].

بعض وظائف الملائكة :

ومن هؤلاء الملائكة جبريل المكلف بإنزال الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** ﴾ [الشعراء / ١٩٢ -١٩٤] .

---

(٣٤) من العافية أيضاً عدم الخوض في تفصيل الأمور الغيبية المجملة، وتركُ الخوض في تلك الأمور من أسباب السلامة عند الله تعالى، وهو من المنهج العلمي اللائق بكرامة الإنسان .

لقد آمَنَّا بأن الروح موجودة، بها تحيا أجسادنا وتقبضها الملائكة عند الموت، ولكن لا نخوض في حقيقتها؛ لأنها مغيبة عنا، قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ **[الإسراء/ ٨٥]** .

وليس هذا خاصاً بالروح، بل كل الأمور الغيبية كذلك، فقد عَرَفْنا وآمَنَّا أن الملائكة تَكْتُبُ أعمالنا وأقوالنا، ولكن لا نخوض في كيفية هذه الكتابة بأوهامنا، لأنه ليس عندنا أسس تساعدنا على البحث في شأنها وتفصيلاتها، ولولا أنَّ الوحي الإلهي في القرآن والسنة جاء بهذه المغيبات لما أَثْبَتْنَا ولما نَفَيْنا ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ **[الإسراء/ ٣٦]** .

ومنهم الموكلون بحفظ الإنسان:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد/ ١١] أي يحفظونه بأمر صادر من عند الله تعالى .

وقال رسول الله ﷺ: « **يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّون** » [البخاري/٥٣٠ مسلم / ٦٣٢] .

ومنهم الملائكة الموكلون بمراقبة العبد وكتابة أعماله وأقواله من الحسنات والسيئات، قال عز وجل: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار/ ١٠- ١٢] وقال سبحانه: ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد** ﴾ [ق/ ١٨] .

وفي يوم القيامة يجد العبد جميع ما كتبه الملائكة من أقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ [الكهف/ ٤٩] .

ومنهم الملائكة الموكلون بقبض أرواح الناس عند حلول آجالهم، قال سبحانه: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** ﴾ [الأنعام/ ٦١] .

ومنهم الملائكة الموكلون في نار جهنم، قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم ٦] .

ومنهم الملائكة الموكلون بحضور مجالس الخير كالصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله، **وبالدعاء** لأصحاب هذه المجالس، قال ﷺ: « **الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِى صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ** » [البخاري/ ٤٣٤] .

وقال النبي ﷺ : « **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِى يُهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِى يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ** » [البخاري/ ٨٨٧ ومسلم/ ٨٥٠] .

وقال أيضاً: « **إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِى الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا... هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ** » .[البخاري /٦٠٤٥ مسلم/ ٢٦٨٩].

وبعض هؤلاء الملائكة في عالم السماء وحول العرش، يُحِبُّونَ المؤمنين ويدعون لهم، قال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [غافر/ ٧-٩] .

وللملائكة صفات وأحوال وأعمال كثيرة أخرى مذكورة في القرآن الكريم، وفي سنة النبي ﷺ نؤمن بها كما جاءت إيماناً بالغيب الذي جاء به الوحي الإلهيُّ، تفصيلاً في الْمُفَصَّلِ، وإجمالاً في الْمُجْمَل .

الركن الثالث الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

ومما جاء به ﷺ أن نؤمن بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، تفصيلاً فيمن فصَّلهم الله علينا، وإجمالاً فيمن لم يفصِّلهم .

والله تعالى كما أرسل إلينا نبينا محمداً ﷺ فقد أرسل رسلاً إلى كل الأمم السابقة، ولكنه سبحانه لم يذكر لنا جميع الرسل (٣٥) قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ [فاطر/ ٢٤] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ [غافر/ ٧٨] .

لا يُقبل الإيمانُ بالله تعالى إلا مع الإيمان بجميع الرسل:

لا يقبل الله تعالى الإيمانَ به إلا مع جوانب الإيمان الأخرى .

ومنها الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا يصح عند الله تعالى إيمان العباد حتى يؤمنوا بجميعهم، وإن تفاوتت مراتبهم وفضَّلَ الله بعضهم على بعض .

---

(٣٥) من المفيد أن نمسك عن الخوض والجدل في إثبات نبوة أحد غير المذكورين في القرآن والسُّنَّة أو في نفيها، لأنه لا تثبت النبوة لأحد ولا تُنفى عن أحد إلا بعلم مُسْتَنِدٍ إلى الطريق الوحيد الموصل إلى العلم بالمغيبات وهو كتاب الله تعالى الذي تكفل بحفظه وما صح عن رسول الله ﷺ الذي قال تعالى عنه ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم / ٣ – ٤] .

ومن المفيد أيضاً أن نُمسك عن الجدل حول نبوة أو ولاية الخضر ﷺ وإن ترجح عند كثير من العلماء أنه نبي مستدلين بأنه فعل الأمور التي عملها ثم قال: ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ [الكهف / ٨٢] .

كما نمسك عن الجدل حول بقائه حياً مع ميلنا إلى ترجيح موته كما رجحه البخاري ومن قال بقوله محتجين بقوله ﷺ : « **أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةٍ مِنْها لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ** » [البخاري/٥٧٦ ومسلم / ٢٥٣٧] .

والخضر ﷺ لا قدوة لنا به؛ لأنه لو كان حياً لوجب عليه اتباع سيدنا محمد ﷺ لأنه أرسل للناس كافة ولألغيَ كل ما كان عليه مما يخالف هذه الشريعة المحمدية المطهرة .

ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدعون إلى الإيمان بالأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام ويأخذون العهد على أتباعهم أن يؤمنوا بالأنبياء الذين يأتون من بعدهم وأن ينصروهم .

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران/ ٨١] .

وبناءً على ذلك لا بد في الإيمان الذي يقبله الله وسبحانه وتعالى من الإيمان بآدم ومحمد ومن بينهما من الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فمن ادعى الإيمان ولم يؤمن بعيسى أو موسى أو سليمان أو محمد أو غيرهم عليهم الصلاة والسلام أو لم يؤمن بأي جانب إيمانيّ آخر فهو عند الله تعالى كافر لا يقبل الله تعالى منه فرضاً ولا نفلاً؛ لأن الإيمان عند الله تعالى كلٌّ لا يتجزأ، إذا ذهب جزؤه ذهب كله (٣٦).

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء / ١٥٠-١٥٢] . .

دين الأنبياء دينٌ واحد

لا يختلف في أمور العقيدة، ولا في الأوامر والنواهي الأساسية :

وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: « **أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلَّاتٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ** » [البخاري / ٣٢٥٩ ومسلم / ٢٣٦٥] .

وفي رواية ابن حبان: « **أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الأُوْلَى وَالآخِرَةِ** » قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال:« **الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّات أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ واحِدٌ، وليسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ** » [ابن حبان/ ٦١٩٤] .

---

(٣٦) هذا شأن الإيمان، أما الجانب العملي فالأمر فيه مختلف فمن أفطر يوماً من رمضان بلا عذر لا يبطل صيامُ شهره، ولا صلاته، بخلاف من ترك الإيمان بنبيٍّ أو بآية قرآنية فإنه يبطل إيمانه كلُّه .

وأولاد العلات هم الإخوة أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، وكذلك الأنبياء عقائدهم وأصول شرائعهم واحدة، وقد تختلف تشريعاتهم في بعضِ الفروع .

فأمور العقيدة وجوانب الإيمان واحدة لا تختلف، قال الله تعالى:

﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [الشورى/ ١٣] .

والأمور الأساسية في التشريع واحدةٌ أيضاً لا تختلف، وذلك كالأمر بالعدل وتحريم الظلم قال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل/ ٩٠] .

أما فروعُ الشرائع كأحكام الطهارة وبعض المعاملات فقد تختلف [٣٧]، قال تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة/ ٤٨] .

محمدٌ ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده :

نَبِيُّنا محمد ﷺ آخرُ الأنبياء لا نبي بعده، ومن ادعى النبوة بعده ﷺ فهو مكذبٌ للقرآن الكريم، مكذبٌ للنبي ﷺ كافرٌ به .

قال تعالى: ﴿ **ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الأحزاب/ ٤٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام: « **كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلّمَا هَلَكَ نَبِيّ خَلَفَهُ نَبِيّ، وَإِنّهُ لاَ نَبِيّ بَعْدِي.** » [البخاري/ ٣٢٦٨ ومسلم / ١٨٤٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إِلاّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النّبِيّينَ** » [البخاري/ ٣٣٤٢ مسلم / ٢٢٨٦] .

(٣٧) ومن ذلك بعض أحكام الحديث التالي، قال رسول الله ﷺ: « **أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي .... وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان** » [البخاري / ٣٢٨ ومسلم / ٥٢١] .

وقد حَدَّث النبي ﷺ أصحابه ﷺ بأن بعض الكذابين سَيَدَّعون النبوة بعده، فقال: « وإنَّهُ سيكُونُ في أُمَّتي ثلاثُونَ كذَّابونَ كلُّهُم يزعُمُ أنَّهُ نَبيٌّ وأنا خاتمُ النَّبيِّينَ لا نَبيَّ بَعدي » .

[أبو داود/ ٤٢٥٢ الترمذي/ ٢٢١٩ وابن حبان/ ٧٢٣٨ وصححاه]

ومن ادعى وجود نبي بعد نبينا محمد ﷺ فهو مكذب له، ومكذب للقرآن الذي أنزله الله تعالى عليه، وهذا كفر وردة عن الدين الذي أرسله الله تعالى به .

نبينا محمد ﷺ بَشَّرَ به الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام :

كان الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام يأتون مصدقين للأنبياء الذين كانوا قبلهم، وآخذين العهد على أتباعهم أن يؤمنوا بمن يأتي بعدهم مصدقاً لما جاؤوا به، وأن ينصروهم؛ فهم جميعاً رُسُلُ الله تعالى، ودينهم واحد هو دين الله عز وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران/ ٨١].

وممن بشر بنبينا محمد موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، بل كانت بشارتهما موجودة فيما أنزله الله تعالى عليهما من التوراة والإنجيل، قال سبحانه: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف/ ١٥٦ – ١٥٧] .

وآخر من بشر به ﷺ سيدنا عيسى ﷺ قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الصف/ ٦] .

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُحَدِّثُكُمْ تَأْوِيلَ ذَلِكَ، دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ وَبِشَارَةِ عِيسَى: ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ورُؤيا أمِّي: رأتْ في منامها أنها وَضَعَتْ نُوراً أضَاءتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّام** » .

[الإمام أحمد / ١٧١٩٠ برجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان وأخرجه الطبراني في الكبير / ٦٣١ واللفظ للطبراني وللحديث شواهد]

رسالة النبي محمد ﷺ عامة لجميع البشر :

أرسل الله تعالى نبينا محمداً ﷺ لكل الناس، ولجميع الشعوب، في عصره ﷺ وما بعده من العصور، ومن الآيات الدالة على ذلك: قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ/ ٢٨] وقوله سبحانه: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان/ ١] .

ويدل على ذلك أيضاً من السنة قوله ﷺ ((**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**)) [٣٨] [البخاري / ٤٢٧ مسلم / ٥٢١] .

---

(٣٨) وقد قام النبي ﷺ بمهمة التبليغ خير قيام، ودعا جميع من تمكن من دعوتهم .

أما الذين لم يتمكن من دعوتهم بشكل مباشر فقد أرسل رسائله إلى ملوكهم وحَمَّلَ أولئك الملوكَ مسؤولية شعوبهم، فقد أرسل ﷺ رسائله إلى هرقل والنجاشي والمقوقس وكسرى وباذان عامل كسرى على اليمن فأسلم وإلى صاحب اليمامة وهجرَ وإلى مَلِكَيْ عُمان .

ومن هذه الرسائل ما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ بعثَ دحيةَ الكلبيَّ ﷺ بكتابه إلى عظيم بصرى وأن يدفعه إلى هرقل، ونصُّ كتابه: ((**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ ﴿ وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [**البخاري / ٤٢٧٨ مسلم / ١٧٧٣**] .

وقام من بعده ﷺ أصحابُه ﷺ فبلغوا الرسالة وأوصلوها إلى مشارق الأرض ومغاربها .

وتَحْمِلُ الأمةُ هذه الأمانةَ في عصرنا هذا وتعظم مسؤوليتها؛ لأننا في عصرٍ تشوهت فيه صورة الإسلام بين كثير من المسلمين وبين غير المسلمين، تشوهاً نتج عن جهود كثيرة من أعداء الأمة، وساعدت على حصوله أخطاءٌ كثيرةٌ صدرت من المسلمين .

شريعته ﷺ ناسخة لما خالفها من الشرائع السابقة :

ويلزم من عموم رسالته ﷺ أن شريعته ﷺ ناسخة لما يخالفها من الأحكام الشرعية السابقة؛ لأنه يلزم من أنه خاتم النبيين ومن عموم رسالته أن يتبع الناس شريعته ﷺ ويتركوا ما يخالفها مما سبقها، وكذلك عندما أرسل سيدنا عيسى بن مريم ﷺ لبني إسرائيل مصدقاً لما كان قبله جاء برسالة ناسخة لبعض الأحكام التي جاء بها موسى ووجب عليهم الأخذ بالأحكام الجديدة وترك ما يخالفها من الأحكام السابقة، قال تعالى يذكر قول عيسى ﷺ: ﴿ **وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [آل عمران/ ٤٩– ٥٠] .

فشريعته ﷺ خاتمة الشرائع وناسخة لها، فكما لا يقبل الله من أحد إيماناً إلا مع الإيمان به، كذلك فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من أحد عملاً إلا ما وافق شرعه ﷺ .

عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام من المعاصي : (٣٩)

ومن صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام العصمة من المعاصي .

---

(٣٩) يضاف إلى ذلك أن الرسل معصومون أيضاً من النسيان أو الخطأ في التبليغ؛ لأن الله تعالى بفضله متكفل ببيان الحق والهداية للناس، ولو نسي أو أخطأ الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ لضاعت الهداية التي تكفل الله تعالى ببيانها .

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة/ ١٦– ١٩] .

وقوله: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** ﴾ [الليل/ ١٢] وقوله: ﴿ **وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** ﴾ [النحل/ ٩] أي إن الله تعالى متفضل ببيان السبيل القاصد المستقيم للناس .

أما نسيان النبي ﷺ آية بعد أن بَلَّغَها وكتبها الصحابة ﷺ وحفظوها فهو ممكن ولا يتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وعن عبد الرحمن بن أبزى ﷺ أنَّ النبي ﷺ صلى الفجر فترك آية، فلما صَلَّى قال : « **أفي القوم أُبَيُّ بن كعب ؟** » قال أُبَيٌّ : يا رسول الله نُسِخَت آية كذا وكذا أو أُنْسيتَها ؟ قال : « **نُسِّيتُها** » .

[رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد / ٢٣٥٤] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال: « **رَحِمَهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا** » [البخاري/ ٤٧٥١ ومسلم/ ٧٨٨]

وذلك لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، وقال عنهم: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام/ ٩٠] وقال لنا: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [**الأحزاب/ ٢١]** فلو صدرت منهم المعاصي لكنا مأمورين بها والله تعالى ينهى عن المعاصي ولا يأمر بها .

وما ورد في القرآن والسنة من ذكر ذنب لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس على ظاهره، بل له تفسير يتناسب مع مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما جاء في حديث الشفاعة: ((**فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ** [٤٠] **نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى**)) [البخاري / ٤٤٣٥ ومسلم / ٣٢٧] .

فإطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة لكونه قال قولاً يعتقده السامع مخالفاً للواقع، لكنه إذا حُقِّقَ لم يكن كذباً لأنه من باب المعاريض المحتمِلة للأمرين فليس بكذب محض .

[انظر فتح الباري ٦/ ٣٩١] .

وقال بعض العلماء ما ورد في القرآن والسنة من ذكر ذنب لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يُؤَوَّلُ على ترك الأولى، وسميت ذنوباً لعظم مقدارهم كما قال بعضهم: حسناتُ الأبرار سيئات المقربين [٤١] **[انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٧/١٨٠]** .

(٤٠) هي قوله: ﴿ **إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ **[الصافات/٨٩]** وقوله: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ **[الأنبياء/٦٣]** وقوله عندما سأله جبار من الجبابرة عن زوجته سارة قال: **أختي [البخاري / ٣١٧٩]** .

(٤١) لا يُستغرب مثل هذا الكلام، وأمثلتُه في واقعنا كثيرة، فبعض الطلاب إذا كانت نسبة درجات امتحانه سبعين في المائة يَفرح ويَرضى، ويُفرح له ويُرضى عنه، وإذا كانت درجات آخرين ثمانين بالمائة حَزن وتألم وربما بَكى، وكذلك بعض المسلمين إذا استيقظ عند أذان الفجر وذهب وصلى في المسجد يرى أنه قد ربح ووُفق في هذا اليوم، وغيره من المسلمين إن حصل معه مثل ذلك في هذا اليوم تألم واستغفر وشعر أنه في هذا اليوم خاسر، لأن من عادته التي وفقه الله إليها مع صلاة الفجر في المسجد أن يتهجد في ثلث الليل الأخير ويتبتل ويكثر الاستغفار في الأسحار، ثم يذهب إلى المسجد لصلاة الفجر .

لا عصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

وقد قامت في أذهان بعض الناس شبهات جعلت بعضهم يعتقد العصمة في غير الأنبياء من الصالحين، أو من المتظاهرين بالصلاح، وقد حصل بسبب ذلك في تاريخ الأمة القديم والحديث ضلالاتٌ انحرف فيها كثير من الناس عن صراط الله المستقيم بسبب هذه الشبهات، وبسبب جهالتهم وبُعدهم عن ضياء القرآن الكريم وعن هدي النبي ﷺ المتمثل بما كان عليه الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .

وليس عند من يعتقد العصمة في غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دليل يصح أن يعتمد عليه، وقد أجمعت الأمة على عصمة النبي ﷺ وعلى وجوب طاعته المطلقة دون غيره من أفراد هذه الأمة (٤٢) .

وقد مضى زمن الصحابة ﷺ وهم خير أولياء هذه الأمة ولم يَدَّعِ أحدٌ منهم لنفسه أو لغيره أنه معصوم، وكانوا يجتهدون في استنباط الأحكام الشرعية، وتكون لهم آراء مختلفة في اجتهاداتهم، وكانوا يعملون بهذا الرأي أو ذاك، ولا ينكر أحد الاجتهاد على أحد ولو خالف في اجتهاده أحدَ الخلفاء الراشدين ﷺ .

وإذا نظرت في كتب الفقه وجدت أن فقهاء الصحابة ﷺ اختلفت اجتهاداتهم في كثير من المسائل (٤٣) .

---

(٤٢) ومما حصل من أسباب الهلاك أن بعض الناس تظاهر بالعبادة والذكر وصار يتكلم ببعض ما يشبه كلام أرباب القلوب وأوهموا بعض الناس البعيدين عن العلم الشرعي وعن العلماء بأن لهم خصوصيات مع الله تعالى، حتى صاروا يُنظر إليهم كأنهم معصومون، مع أن العصمة لا تكون لأحد بعد النبي ﷺ ، وخيار هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ لم يدع أحد منهم العصمة، وكان كل منهم يجتهد في الأحكام، فيقبل قول كلٍّ منهم ويرد .

ومما حدث نتيجة لما صُنِعَ حول هؤلاء المضلين أنه خُدع بهم أهل الجهالة ووثقوا بهم ثقة مطلقة عمياء كان من نتيجتها أنه جُعل بعضُ الناس معياراً وميزاناً للحق، فَضَلَّ بذلك كثير من الناس، وانحرفوا عن منهج رسول الله ﷺ وعن صراطه المستقيم، حتى وصل بعضهم إلى مستوى من الشقاء فأسقطوا التكليف وأباحوا المحرمات .

فمن الواجب الحذر، وأن يعرف المسلم أن كلَّ أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، وأنه لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ وأنه لا يُطاع أحد من هذه الأمة طاعةً مطلقةً إلا سيدنا محمدٌ عليه الصلاة والسلام .

(٤٣) وأوضح ذلك بمثال واحد هو اختلافهم في ميراث الجد مع الإخوة عند عدم وجود الأب

معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام :

وقد أيد الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات، والمعجزة أمر خارقٌ للقوانين العامة التي نَظَّمَ الله تعالى بها هذا الكون مما لا يكون في قدرة البشر، يُجْرِي الله تعالى هذا الأمر الخارق على أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٤) .

فقد جعل الله تعالى في طبع الماء الرِّقَّةَ والسيلانَ من الأعلى إلى الأسفل، ولكنَّ الذي إرادتُه فوق كل إرادة وهو على كل شيء قدير، وهو الذي وضع هذه الخاصية في الماء قادر على تغييرها كما يريد .

فعندما سار موسى ﷺ ومن معه وأَتْبَعَهُمْ فرعون بجنوده، والبحر أمامهم وظنَّ أصحاب موسى ﷺ أنهم مُدْرَكون، وظنَّ فرعون أنَّه سيقضي عليهم أمر الله تعالى موسى ﷺ فَضَرَبَ بعصاه البحر وغَيَّرَ الله تعالى من طبع الماء فانفلق الماء، وظهرت أرض البحر طريقاً والماءُ على جانبيه كالجدران، ومشى موسى ﷺ ومن معه، وتبعهم فرعون وجنوده، حتى إذا خرج موسى ﷺ ومن معه إلى البر أعاد الله تعالى الماء إلى طبيعته العامة السابقة، وأغرق الله تعالى فرعون وجنوده .

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** ﴾ [الشعراء /٦١-٦٦] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ**

والأولاد، فأبو بكر الصِّديق ﷺ يجعل الميراث كله للجد، ولا يورث الإخوة شيئاً، وعليٌّ وابن مسعود وزيد بن ثابت ﷺ يُوَرِّثون الإخوة مع الجد على اختلافٍ بينهم في التفصيل، ولم يدَّعِ أحد منهم أنَّ الصواب معه والخطأ مع غيره، ولم يدَّعِ الصِّديقُ ﷺ ولا غيره العصمة لنفسه ولا لغيره، بل لم يسمع بهذه العصمة أحد منهم.

(٤٤) وقد يُجري الله تعالى أموراً خارقة للعادة على أيدي أناس من المؤمنين الصالحين تُسَمَّى: **كرامات الأولياء**، ويَجري بين الناس اختلافات ومناقشات حول قضية الأولياء وكراماتهم، كما انتشرت أكاذيب وجهالات كثيرة حول هذه القضية فرأيت من الضروري أن أبين الحق من الباطل في ذلك، فمن أراد الاطلاع على أدلة وكلام العلماء عليها وجدها في الملحق رقم (٧) في آخر الكتاب .

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس/ ٩٠ –٩٢] .

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى** ﴾ [طه / ٧٧–٧٩] .

وكذلك أراد قومُ إبراهيمَ ﷺ أن يُحْرِقُوه بالنار التي جعل الله تعالى الإحراق من طبعها لينصروا آلهتهم، ولكن الله تعالى أيَّدَ رسوله إبراهيم ﷺ فغير من طبع النار التي ألقوه فيها وجعلها عليه برداً وسلاماً كما أخبرنا الله تعالى: ﴿ **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**) [الأنبياء / ٦٦ – ٧٠] .

الركن الرابع الإيمان بالكتب السماوية

ونؤمن بالكتب والصحف التي أنزلها الله تعالى على هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة/ ٢٨٥] .

وهذا الجانب الإيماني جانب أساسي، وهو من الأركان أيضاً، فعندما سُئل رسول الله ﷺ عن الإيمان قال: ((**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**)) [مسلم / ٨] .

أنزل صحفاً على إبراهيم وموسى، ﴿ **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى** ﴾ [الأعلى/ ١٨ – ١٩] .

وأنزل التوراةَ على موسى والإنجيلَ على عيسى والزبورَ على داود والقرآنَ على محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام قال عز وجل: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران/ ٣–٤] وقال سبحانه: ﴿ **وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾ [الإسراء / ٥٥] .

القرآن الكريم محفوظ قد تكفل الله تعالى بحفظه :

القرآن الكريم آخر الكتب التي أنزلها الله تعالى، وهو مرسلٌ لجميع الناس الذين كانوا موجودين في عصر نبينا محمد ﷺ ثم إلى جميع الذين يأتون بعد عصره إلى يوم القيامة، ولذلك كان من حكمة الله تعالى البالغة أنه سبحانه وتعالى هو الذي تكفل بحفظه، ليبقى مناراً للناس إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر/ ٩] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت/ ٤١-٤٢] [٤٥] .

ومن ادعى أنَّ القرآن قد تغير، زاد أو نقص أو حُرِّف أو بُدِّلَ منه شيءٌ فقد كَذَّبَ القرآنَ الكريم ومن كَذَّب القرآن فهو كافر .

---

(٤٥) **يليق بنا أن نشكر ربنا تعالى على نعمته علينا بحفظ القرآن**

مِنْ فضل الله تعالى علينا أننا على علم يقينيٍّ أن هذا القرآن هو الذي أنزله الله تعالى على نبينا ﷺ، لم يتغير ولم ينقص ولم يزد حرفاً واحداً، والحمد لله رب العالمين، ومِنْ شُكْرِ الله تعالى أن نُمْضِيَ أعمارنا في الاستضاءة بضيائه في عقولنا وقلوبنا ونفوسنا، استضاءة يظهر أثرها في كلامنا وأخلاقنا وبيوتنا وجميع أنواع سلوكنا .

ولا يكفي في الشكر أن نقرأ ونحفظ ونجود التلاوة دون تدبره بقلوبنا، وظهور أثره في نفوسنا وكلامنا وأخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، وإلا فإنَّ حالنا يكون مِثْلَ حالِ الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة/ ٥] .

الركن الخامس الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: « **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** » [مسلم / ٨] .

وهو اليوم الذي يحيي الله فيه الموتى ويبعثهم من قبورهم ويحشرهم للحساب والجزاء، ويأخذ فيه المظلوم حقه، ويُجازَى كلُّ إنسان بحسناته وسيئاته وإن كانت مثقال ذرة، ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران/ ٣٠] .

اليوم الآخر من مظاهر حكمة الله تعالى:

عندما يلاحظ الإنسان ما عرفه من أن الله فعالٌ لما يريد، وأنه على كل شيء قدير، وأن إرادته فوق كل إرادة، وأنه الحكيم العليم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن هذه الأرضَ وهذا الكونَ في قبضته يفعل فيه ما يشاء، وهو أرحم الراحمين .

ويلاحظ أيضاً ما يعرفه ويشاهده في هذه الحياة من أعمال المفسدين، وظلم أهل الشر والفساد للمستضعفين، وضياع حقوق المظلومين، وكثرة الذين عاشوا ظالمين، وماتوا ظالمين ولم تؤخذ منهم الحقوق، مع كثرة الذين عاشوا مظلومين وماتوا مظلومين، ولم يأخذوا حقوقهم؛ عندما ينظر الإنسان إلى ذلك، ويربطه بما عرفه من صفات الله تعالى، ويكون غافلاً عن الآخرة فإنه لا تظهر له حكمة الله تعالى، ويتوهم أن حياة الإنسان في هذه الدنيا كأنها عبثٌ لا حكمة فيها .

ولكن إذا ربط نظرته إلى الدنيا بما سيكون في الآخرة من الحساب والجزاء، وأن الله تعالى جعل الحياة الدنيا امتحاناً تتحقق نتائجه في الآخرة، بحيث لا يضيع فيه مثقال ذرة من الخير ولا من الشر عرف جانباً عظيماً من حكمة الله تعالى وابتعد عنه توهم العبث في وجود هذه الحياة الدنيوية، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** ﴾ [إبراهيم/ ٤٢] .

وقال سبحانه: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون/ ١١٥و ١١٦].

وقت يوم القيامة لا يعلمه إلا الله تعالى:

وقت يوم القيامة لا يعلمه إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ [لقمان/٣٤] وقال سبحانه: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف/ ١٨٧] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ اللَّهُ** » (٤٦) [البخاري / ٤٤٢٠] .

ولا بد لنا في هذا الكتاب على ما هو عليه من الصِّغَرِ من الوقوف على أهم عوالم الآخرة والأمور التي ترتبط بيوم القيامة مقترنة بآيات القرآن الكريم، وبأحاديث رسول الله ﷺ راجين من الله تعالى أن يجعلنا من أهل البصيرة في الدين، الموفقين للاستعداد لذلك اليوم بالتوبة إلى الله تعالى، وبالأحوال والأعمال الصالحة، لتترك فينا تلك الآيات والأحاديث – إضافة إلى المعلومات – خشيةً من الله تعالى وخوفاً من سوء الحساب، عسى أن يلحقنا الله تعالى بمن قال عنهم: ﴿ **لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [الأنبياء/ ١٠٣] وبالذين وفقهم في الدنيا لخشيته لِيُسَلِّمَهم في الآخرة من عذابه ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور/ ٢٥– ٢٨] .

وقبل الحديث عن عوالم الآخرة نقف مع حياة البرزخ وبعض ما يجري فيها .

حياة البرزخ نعيماً أو عذاباً :

ومما جاء به نبينا ﷺ أن الإنسان يحيا حياة برزخية بعد الحياة الدنيا وقَبْلَ يومِ القيامة، يكون الإنسان فيها منعماً أو معذباً، وهذه الحياة من أمور الغيب التي جاء بها الوحي الإلهي، نؤمن بها إيماناً غيبياً ونعلم أنها حقيقة قطعية؛ لثبوتها بأدلة القرآن الكريم، وبأحاديث النبي ﷺ .

---

(٤٦) قد ضلَّ في عصرنا أناس، لهم وَلَعٌ بتحريف معاني القرآن والسنة، وبالطعن في الأحاديث الصحيحة، يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله مبتعدين عن المنهج العلمي، يزعمون أن لهم طريقة لفهم القرآن ترتبط بأسرار وأرقام زعموها لكل حرف من حروفه، ومما بَنَوهُ على ضلالتهم أنهم عرفوا العام الذي ينتهي فيه العالم، وهم بذلك يُكَذِّبون القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

ومع إيماننا بها نسكت عن تفصيلاتها التي لم يرد بها الوحي الإلهيُّ .

ومما جاء في القرآن الكريم من أدلة الحياة البرزخية ما أخبرنا الله تعالى به في قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه فقد جاء فيها ما يدل على أنَّ فرعون وأتباعه يعذبون بعد الموت وقبل يوم القيامة قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [**غافر/ ٤٥-٤٦**].

وجاء في ذلك أحاديثُ كثيرةٌ منها:

قوله ﷺ: « **إِنّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ. إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنّةِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النّارِ. يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .[**البخاري/ ١٣١٣مسلم/٢٨٦٦**] .

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** » [**البخاري/ ٢١٥مسلم/٢٩٢**] .

فتنة القبر (البرزخ) :

ومن أمور البرزخ ما أخبر به النبي ﷺ من الأحاديث التي تدل على فتنة البرزخ بعد الموت، التي تسمى فتنة القبر، التي يُسأل فيها العبد عن ربه تعالى وعن دينه وعن نبيه ﷺ نَسألُ الله تعالى أن يثبتنا وأن يلقننا حجتنا .

ومما جاء فيها بالإضافة إلى الحديث السابق حديثُ الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « **إِذَا تَشَهّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدّجّال** » .
[**مسلم / ٥٨٨**]

وحديثُ الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما في روايتها لصلاة الكسوف، وذكرت فيه موعظة النبي ﷺ التي قال فيها:

« ..... **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ – أَوْ قَرِيباً مِنْ – فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، – لا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ – يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ – أَوْ الْمُوقِنُ لا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ – فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى**

فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا فَيُقَالُ لَهُ نَمْ صَالِحًا فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِنًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ – لا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ – فَيَقُولُ لا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه » .

[البخاري / ٨٦ مسلم/ ٩٠٥] .

عن البراء ﷺ عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿ **يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم/ ٢٧] قال: « **فِي الْقَبْرِ إِذَا قِيلَ لَهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟** »

[الترمذي وصححه / ٣١٢٠] .

حياة الشهداء:

ومما يتعلق بحياة البرزخ ما أكرم الله تعالى به الذين بذلوا أرواحهم في سبيله تبارك وتعالى فجعلهم عنده بعد موتهم وقبل يوم القيامة أحياءً منعمين مرزوقين .

قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

[آل عمران/ ١٦٩ – ١٧١] .

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلاَّ الشَّهِيدَ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى** » (٤٧) **[البخاري / ٢٦٤٢ومسلم / ١٨٧٧]** .

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: **أَنَّ شُهَدَاءَ أُحُدٍ لَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مُنْقَلَبِهِمْ قَالُوا يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلاَ يَنْكُلُوا** (٤٨) **عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاَءِ الآيَاتِ عَلَى رَسُولِهِ** ﷺ ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء ....** ﴾ **[آل عمران/ ١٦٩]** .

[مسند أحمد بسند حسن / ٢٣٨٨]

---

(٤٧) قد يقول متسائل: كيف يتمنى ذلك وقد ذاق سكرات الموت وآلام القتل؟ والجواب يدفعه إلى هذا التمني عظمة كرامة الشهداء التي رآها، وأما ألم القتل فقد قال عنه رسول الله ﷺ : «**مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ أَلَمِ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ أَلَمِ الْقَرْصَةِ** » .

[الترمذي وصححه / ١٦٦٨والنسائي / ٣١٦١وابن ماجه/ ٢٨٠٢ والدارمي/ ٢٤٠٨ وابن حبان / ٤٦٥٥]

(٤٨) نَكَلَ عن العَدُوِّ وعن اليمين من باب دخل أي جَبُنَ **[مختار الصحاح]** .

شهداء في غير الجهاد

ليس ثواب وفضل الشهادة محصوراً فيمن قتل عند القتال في سبيل الله تعالى؛ فقد وردت أحاديث كثيرة تبين أن الشهادة تكون لغيرهم أيضاً، منها:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ،وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل** » . [البخاري / ٦٢٤ومسلم / ١٩١٤]

وحديث جابر بن عَتِيكٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت ﷺ فوجده قد غُلِبَ فصاح به رسول الله ﷺ فلم يجبه فاسترجع رسول الله ﷺ وقال: « **غُلِبنا عليكَ يا أبا الربيع** » قالت ابنته والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيداً فإنك قد كنت قضيت جهازك، قال رسول الله ﷺ « **إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ ؟** » قالوا: القتلُ في سبيل الله تعالى، قال رسول الله ﷺ : « **الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرْقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ – هو أن تموت وفي بطنها ولد – شَهِيدَةٌ** » [الإمام أحمد/ ٢٢٧٣٧ وأبو داود/ ٣١١] .

يوم القيامة يحيي الله الموتى ويبعث من في القبور:

وفي يوم القيامة يُحيي الله الموتى ويبعث من في القبور، وذلك عند النفخة الثانية في الصور، أما النفخة الأولى فيموت فيها أهل الأرض وأهل السماء، كما قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [الزمر/ ٦٨] .

الغافلون عن قدرة الله تعالى قد يستبعدون إحياءَ الموتى وينكرونه، ويقولون كيف تعود العظام البالية والجلود والعروق والأعصاب والعيون إلى الحياة بعد تفتتها، قال تعالى: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن/ ٧] .

ولكن القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان وتفكيره إلى النشأة الأولى وإلى التفكير في مخلوقات الله عز وجل ليتعرف على عظيم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وعلى كل شيء .

قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** *

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس / ٧٧-٨١] .

فائدة: يلاحظ في النص السابق أن الله تعالى ربط الخلق بالعلم في موضعين، الأول: ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ والثاني: ﴿ **وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ﴾ ونستفيد من هذا الربط أنَّه ينبغي أن يكون تفكيرنا في المخلوقات مرتبطاً بما توصل إليه الإنسان من العلم في كلِّ ما نفكر فيه؛ لتكون ثمرة تفكيرنا أعظم .

بعض ما يكون في يوم القيامة :

قد جاءت من الوحي الإلهي في القرآن والسنة أخبار كثيرة تتحدث عن الأمور التي ترتبط بيوم القيامة وما بعده في الجنة والنار، ومن ذلك:

الكروب وشدة الأهوال :

مما يكون في يوم القيامة وقبل دخول الناس الجنة أو النار وجود عذاب وكروب وأهوال نسأل الله تعالى أن ينجينا منها .

والآيات والأحاديث التي تتحدث عن تلك الكروب كثيرة جداً، منها قوله عز وجل: ﴿ **فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس/ ٣٤- ٣٧] .

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج/ ١- ٢] .

ومن شدة الكرب يتمنى المعذب في تلك الأحوال الصعبة لو ينجو ولو عذب بدلاً عنه أحبُّ الناس إليه من أقربائه، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ** ﴾ [المعارج/ ٨- ١٣] .

ومن شدة الكرب — ونسأل الله تعالى العافية — أن الناس يحشرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ولا يلفت ذلك الأمرُ اهتمامَهم .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: « **تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** [٤٩] **قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ** » وفي رواية: « **الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ** » [البخاري / ٦١٦٢ ومسلم / ٢٨٥٩] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « **قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾** [الأنبياء/١٠٤] **أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ** » [البخاري / ٣١٧١ ومسلم / ٢٨٦٠] .

وما تقدم من الأدلة يدل على بعض شدة عامَّة وعذاب مطلق في ذلك اليوم، وهناك أدلة أخرى تبين جوانب مفصلة من العذاب نسأل الله تعالى أن يحمينا .

ومن ذلك ما يعذب به المانعون للزكاة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ** » [مسلم / ٩٨٧] .

الناجون من أهوال يوم القيامة :

ومع شدة الأهوال والكروب في ذلك اليوم يكرم الله تعالى عباده المرضيين فيجعلهم آمنين يوم القيامة ويظلهم في ظل عرشه، ومنهم الحكام العادلون والمتحابون في الله والباكون من خشية الله تعالى والشباب الناشئون في طاعة الله تعالى، والحافظون فروجهم عن الحرام وأمثال هؤلاء من الموفقين .

قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [فصلت/ ٤٠] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا**

(٤٩) (غُرْلاً) جمع أغرل وهو الذي لم يختن، والمعنى أنهم يحشرون كما خلقوا لم يفقد منهم شيء، وليس معهم شيء .

حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » [البخاري / ٦٢٩ ومسلم/ ١٠٣١] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي** » [مسلم/ ٢٥٦٦] .

وعن أبي إدريس الخولاني قال دخلت مسجد حمص فجلست إلى حلقة فيها اثنان وثلاثون رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال يقول الرجل منهم سمعت رسول الله ﷺ فيحدث، ثم يقول الآخر سمعت رسول الله ﷺ فيحدث قال : وفيهم رجل أدعج[٥٠] براق الثنايا، فإذا شكُّوا في شيء ردوه إليه ورضوا بما يقول فيه، قال فلم أجلس قبله ولا بعده مجلساً مثله فتفرق القوم وما أعرف اسم رجل منهم ولا منْزله .

قال فَبِتُّ بليلة ما بت بمثلها، قال وقلت: أنا رجل أطلب العلم وجلست إلى أصحاب نبي الله ﷺ لم أعرف اسم رجل منهم ولا منْزله .

فلما أصبحت غدوت إلى المسجد فإذا أنا بالرجل الذي كانوا إذا شكوا في شيء ردوه إليه يركع إلى بعض إسطوانات المسجد فجلست إلى جانبه فلما انصرف قلت يا عبد الله والله إني لأحبك لله تبارك وتعالى، فأخذ بحبوتي حتى أدناني منه ثم قال: إنك لتحبني لله؟ قال قلت إي والله إني لأحبك لله، قال فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ فِي ظِلِّ اللَّهِ وَظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ** » قال فقمت من عنده فإذا أنا برجل من القوم الذين كانوا معه، قال قلت: حديثاً حدثنيه الرجل؟ قال أما إنه لا يقول لك إلا حقاً قال فأخبرته فقال قد سمعت ذلك وأفضل منه سمعت رسول الله ﷺ وهو يأثر عن ربه تبارك وتعالى « **حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ فِيَّ** » قال قلت من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عبادة بن الصامت، قال: قلت: من الرجل؟ قال: معاذ بن جبل.

[مسند الإمام أحمد / ٢٢٨٣٥] .

ومن أسباب النجاة من أهوال يوم القيامة أن يُفَرِّجَ المؤمن كربة أخيه في الدنيا، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » [البخاري / ٢٣١٠ومسلم/ ٢٥٨٠]

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ** » [الإمام أحمد/ ٨٦٩٦ والترمذي / ١٣٠٦] .

---

(٥٠) الدَّعَجُ شدة سواد العين مع سعتها .

عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلِكوا، فكان أولُ من لقينا أبا اليسر صاحبَ رسول الله ﷺ ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، فقال له أبي يا عم إني أرى في وجهك سفعة من غضب، قال أجل؛ كان لي على فلان بن فلان مالٌ فأتيت أهله فسلمت فقلت ثَمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج عليَّ ابنٌ له جَفْرٌ، فقلت له: أين أبوك ؟ قال سمع صوتك فدخل أَرِيْكَةَ أمِّي، فقلت: اخرج إليَّ فقد علمتُ أين أنت، فخرج فقلتُ، ما حَمَلَكَ عَلَى أنْ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ وكنتُ والله معسراً .

قال قُلتُ: آللَّهِ؟ قَالَ: اللَّهِ، قُلْتُ: آللَّهِ؟ قَالَ: اللَّهِ؟ قُلْتُ: آللَّهِ قَالَ الله، قَالَ: فَأَتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بِيَدِهِ فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي وَإِلَّا أَنْتَ فِي حِلٍّ، فَأَشْهَدُ – بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذَا، وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ – رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ** » .

[مسلم/ ٣٠٠٦]

وكذلك من كان قلبه في الدنيا عامراً بالدعاء مع خشية الله تعالى .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُوم * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ .

[الطور/ ٢٥–٢٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ يروي عن ربه عز وجل « **وَعِزَّتِي لا أجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وأمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيا أَمَّنْتُهُ يَومَ القِيامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيا أخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ** » .

[ابن حبان / ٦٤٠] .

الشفاعة العظمى:

ومما يكون في يوم القيامة ما أكرم الله تعالى به نبينا محمداً ﷺ وأمته من شفاعته العظمى في إراحة أهل الموقف يوم القيامة التي هي من خصوصياته وهي المقام المحمود، ودلَّ على ذلك أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ « **أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ**

وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ .

فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ – ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام فيعتذرون ثم يأتون محمداً ﷺ –[٥١] فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ .

فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي .

ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ .

ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى [البخاري / ٤٤٣٥ومسلم/ ١٩٤] .

للنبي ﷺ شفاعات أخرى :

وتكون في الآخرة شفاعات للنبي ﷺ غيرُ الشفاعة العظمى .

منها الشفاعة في إخراج عصاة الموحّدين من النَار وإدخالهم الجنة، وقد ذكر ذلك ضمن أحاديث الشفاعة العظمى، قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدّاً فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ » [البخاري / ٦١٩٧ ومسلم/ ١٩٣] .

شفاعاتٌ في الآخرة لغير نبينا ﷺ :

وهذه الشفاعة تُشاركه فيها الملائكة، والنبيُّون، والشهداء، والصدِّيقون، والصالحون، والمؤمنون، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ نعم .... ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ قَالَ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

(٥١) ما بين المقطوعتين – .... – من هذا الحديث روايةٌ بالمعنى من أجل الاختصار .

حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِن النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِن الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِم الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَت النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ .

فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء/٤٠] .

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَت الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِن النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا (٥٢) فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ .

فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ قَالَ فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِم الْخَوَاتِمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُم اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِن الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُ رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا [البخاري/ ٧٠٠١ ومسلم/ ١٨٣] .

الحساب والميزان وأخذ العباد كتبهم :

ومما يكون في يوم القيامة الحساب، والوزن، وأخذ العباد كتبهم التي كتب فيها حسناتهم وسيئاتهم، فآخذ كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ومحاسب حساباً عسيراً، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة منها:

---

(٥٢) هؤلاء الذين لم يعملوا خيراً قط قال عنهم النووي في شرحه لهذا الحديث: هم الذين معهم مجرد الإيمان، وهم الذين لم يؤذن في الشفاعة فيهم، وإنما دلت الآثار على أنه أَذِنَ لمن عنده شيء زائد على مجرد الإيمان، وجَعَل للشافعين من الملائكة والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم دليلاً عليه، وتفرد الله عز وجل بعلمِ ما تكنه القلوب، والرحمةِ لمن ليس عنده إلا مجرد الإيمان .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق/ ٦-١٢] .

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ﴾ [الحاقة/ ١٨-٢٩] .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ . [الكهف / ٤٩]

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء / ٤٧].

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف / ٨- ٩].

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون / ١٠٢- ١٠٣].

شهادات في يوم القيامة:

ومن حكمة الله تعالى أنَّه تكون في ذلك اليوم شهادات، فالأرض تشهد بما عمل على ظهرها من خير أو شر .

قال سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [الزلزلة / ٤-٥] .

وجوارح الإنسان تشهد ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور / ٢٤] .

﴿ ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ

وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت/ ١٩- ٢١] .

عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له: إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه « **لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » ، قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ **[البخاري / ٥٨٤]** .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: « **هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ** » ؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: « **مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِن الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ** » .

[مسلم/ ٢٩٦٩]

حوض نبينا محمد ﷺ:

ومن فضل الله تعالى على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته أن الله تعالى أكرمه وأكرم أمته فأعطاه حوضاً عظيماً يلتقون معه عند ذلك الحوض، ومِن خواصه أنَّ من شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً، وقد وصف ﷺ ذلك الحوض بأحاديث كثيرة:

منها عن أنسٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِن الْيَمَنِ وَإِنَّ فِيهِ مِن الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ** » **[البخاري / ٦٢٠٩ومسلم / ٢٣٠٣]** .

ومنها عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِن اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِن الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَداً** » **[البخاري / ٦٢٠٨ومسلم / ٢٢٩٢]** .

بشارة عظيمة نرجو الله تعالى أن يجعلنا من أهلها :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: « **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**، قالوا أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ **قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**، فقالوا كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ فَقَالَ: **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ** قَالُوا بَلَى يَا

رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ** » [مسلم/ ٢٤٩] .

المرور على الصراط، وأولُ الأمم مروراً:

ومما أخبر به نبينا ﷺ أنه ينصب الصراط فوق جهنم ليَمُرَّ الناسُ فوقه إلى الجنة، فمن الناس من يمر بفضل الله كالبرق ومنهم كالريح وكأجاويد الخيل، ومنهم دون ذلك ومنهم من يسقط في جهنم، تخطفهم كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، وأول الأمم مروراً أمة سيدنا محمد ﷺ ، وفي هذا أحاديث كثيرة، منها:

قوله ﷺ : « ...... **وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَبِهِ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ مِنْهُم الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُم الْمُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو** » [البخاري / ٧٧٣ ومسلم / ٨٢] .

وقوله ﷺ : « **ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجَسْرُ قَالَ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا** » [البخاري / ٧٠٠١ومسلم / ١٨٣] .

وفي رواية: « **فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ .**

وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو » [البخاري/ ٧٧٣] (٥٣) .

(٥٣) ينبغي أن نتذكر أننا سنحشر حول جهنم، وأننا سَنَرِدُهَا عند المرور على الصراط، ولا يعرف أحدٌ منَّا أيكون من الناجين أم من المعذبين؟ قال تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً** ﴾ [مريم/ ٦٨-٧٢] ومما يفيدنا الفرار والالتجاء إلى الله تعالى، اللهم أعذنا من عذاب جهنم .

من يدخلون الجنة بغير حساب :

ومما يكون في يوم القيامة أنه يدخل الجنة أناس بغير حساب، ومما صح في هذا الأحاديث التالية:

عن أبي حازم عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ – لَا يَدْرِي أَبُو حَازِمٍ أَيَّهُمَا قَالَ – مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ** » [مسلم / ٢١٩] .

وعن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وَثَلاَثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ** » .

[الإمام أحمد بن حنبل بسند حسن ٥ / ٢٦٨]

نار جهنم ليست كنار الدنيا وعذاب أهلها متفاوت:

قال رسول الله ﷺ : « **نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ** ». [البخاري / ٣٠٩٢ومسلم/ ٢٨٤٣]

وعذاب أهلها متفاوت وليس على درجة واحدة .

فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، كما أخبر ربنا عز وجل: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾ [النساء/ ١٤٥] .

وغيرُ المنافقين على حسب أحوالهم وأعمالهم

عن سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ** » .

[الإمام أحمد / ٢٠١١٥ ومسلم/ ٣٨٤٥]

وأهون أهل النار عذاباً من له نعلان من نار

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا** » [مسلم / ٢١٣ والحاكم / ٨٧٣٠] .

عذاب الكافرين في النار دائم :

والكافرون في النار مخلدون عذابهم دائم ومنها لا يخرجون، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ**

كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء/ ٥٦] .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة/ ٣٦– ٣٧] .

وقال عز وجلّ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر/ ٣٦–٣٧] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾ .

[الأحزاب/ ٦٤–٦٦]

أهل النار يُعادي بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض

مع المودة والخُلّة التي كانت في الدنيا بين أهل الطغيان والمعاصي يتحولون يوم القيامة أعداءً، ويتبرأ بعضهم من بعض، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف/ ٦٦– ٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة/ ١٦٥ – ١٦٧] .

وقال سبحانه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم/ ٢١–٢٢] .

عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار:

ومما جاء به ﷺ أنَّ من عذب في الآخرة من عُصاة المؤمنين لا يخلد في النار.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**يُدْخِلُ الله أَهْلَ الْجَنّةِ الْجَنّةَ. يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النّارِ النّارَ، ثُمّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَماً قَدِ امْتَحَشُوا. فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ أَوِ الْحَيَا. فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبّةُ إِلَى جَانِبِ السّيْلِ. أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً**)) [مسلم / ١٨٤] .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**يَخْرُجُ مِن النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِن النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**)) [البخاري/ ٤٤مسلم /١٩٣] .

وفي رواية للبخاري: ((**وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ**)) .

وعن أبي هُرَيْرَةَ ..... حَتّى إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النّارِ، أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئاً، مِمّنْ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمّنْ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله. فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النّارِ. يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السّجُودِ. تَأْكُلُ النّارُ مِن ابْنِ آدَمَ إِلاّ أَثَرَ السّجُودِ، حَرّمَ الله عَلَى النّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السّجُودِ. فَيُخْرَجُونَ مِنَ النّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا. فَيُصَبّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ. فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبّةُ فِي حَمِيلِ السّيْلِ [البخاري /٧٧٣ومسلم / ١٨٢] .

أهل الجنة فيها خالدون، ومنها لا يخرجون:

أهل الجنة فيها خالدون، ومنها لا يخرجون، ولا يَمَلُّون؛ نعيمهم دائم متجدد، أعد الله لهم من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: ((**فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**)) ثم اقترأ هذه الآية: ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة / ١٦– ١٧] [مسلم / ٢٨٢٥] .

وقال الله سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾ [الكهف/ ١٠٧–١٠٨] .

وقال عز وجلّ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً ﴾ [النساء / ١٢٢] .

أعظم نعم الجنة رؤية الله تعالى ورضاه

وأعظم ما يكرم الله تعالى به المؤمنين في الجنة رؤيتهم له سبحانه ورضاه عنهم .

وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة/ ٢٣] .

عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ – قَالَ – يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ – قَالَ – فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ » .

[الإمام أحمد/ ١٨٩٦١ومسلم/ ١٨١]

وفي رواية زيادة: « ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس/٢٦] .

وفي رواية الإمام أحمد: « فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ » .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » [البخاري/ ٦١٨٣ ومسلم / ٢٨٢٩] .

وعن أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: « هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ » (٥٤) .

[البخاري / ٧٠٠٠ ومسلم / ١٨٢]

رؤية المؤمنين ربهم لا تكون إلا في الآخرة :

من المعروف أن نبي الله تعالى موسى ﷺ طلب من الله تعالى أن يراه، وأن الله تعالى لم يعطه طلبه، كما أخبرنا الله تعالى بذلك في قوله عزّ وجلّ ﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(٥٤) (**هل تضارُّون**) ذكر النووي في شرح مسلم أنَّ معناه هل تضارُّون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها، وأنَّ معنى (**ترونه كذلك**) تشبيهُ الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك ورفع المشقة والاختلاف، ومثلُ ذلك في فتح الباري .

[الأعراف/ ١٤٣] .

أما نبينا محمد ﷺ فقد أثبت له الرؤية ابنُ عباس رضي الله عنهما ونفتها عائشة رضي الله عنها، وليس في ذلك شيء قطعي .

ونقل النووي في شرح مسلم ٣/ ٤ عن القاضي عياض أنه قال: ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس عليه دليل واضح اهـ

وكذلك نقل في فتح الباري أنَّ القرطبي رجح في المفهم قولَ الوقفِ في هذه المسألة وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وأنَّ غاية ما استُدِل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال وليست المسألة من العمليات فيُكتفَى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يُكتفَى فيها إلا بالدليل القطعي اهـ

[انظر فتح الباري ٨ / ٦٠٨ تفسير سورة النجم] .

ويسعنا في مثل هذه القضية أن نسكت ونتوقف كما توقف كثير من أهل العلم، وأن نتذكر أننا لا نُسأل عن مثل هذه الأمور يوم القيامة (٥٥) .

لكن القاعدة العامة أن رؤية المؤمنين لربهم سبحانه لا تكون إلا في الآخرة بعد الموت، وكل دعوى تخالف هذه القاعدة فهي باطلة لأن رسول الله ﷺ قال: « **تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ** » و« **تَعَلَّمُوا** » بمعنى: « اعْلموا » .

[الإمام أحمد/ ٢٣٧٢٢ ومسلم في صحيحه/٢٩٣١ والترمذي/ ٢٢٣٥]

(٥٥) وإذا وسعنا أن نتوقف ونسكت في هذه المسألة التي تكلم فيها بعض الصحابة ﷺ فمن باب أولى أن نسكت عن كثير من مسائل الجدل والخصومات الدينية المعاصرة .

الركن السادس الإيمان بالقدر

معنى القدر أن الله تبارك وتعالى قدَّر الأشياء في القدم، وعَلِمَ سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى [٥٦] .

قال تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد/ ٢٢ – ٢٣] .

والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ومن أنكر القدر فقد كَذَّبَ الله تعالى، وكَذَّبَ النبي ﷺ ولذلك عندما أَخبَرَ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ابنَ عمرَ رضي الله عنهما عن أُناس ظهروا في البصرة ينكرون القدر قال له: « **فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنّهُمْ بُرَآءُ مِنّي،** ثم قال ابن عمر رضي الله عنهما: **وَالّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ** » .

ثم روى عن أبيه عمر رضي الله عنه الحديثَ المشهورَ حديثَ الإسلام والإيمان والإحسان الذي قال فيه النبي ﷺ مبيناً الإيمان: « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرّهِ** » [مسلم / ٨] .

ومما يوضح جانباً من أنوار الإيمان بالقدر الأحاديثُ التالية:

عن عُبَادَةَ بنِ الصّامِتِ رضي الله عنه أنه قال لابْنِهِ: « **يَا بُنَيّ إنّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإيْمَانِ حَتّى تَعْلَمَ أنّ مَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَما أخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: إنّ أوّلَ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى الْقَلَمَ فقال لَه: اُكْتُبْ، فقَالَ: رَبّ وَمَاذَا أكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلّ شَيْء حَتّى تَقُومَ السّاعَةُ، يَا بُنَيّ إنّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنّي** » [أبو داود / ٤٦٨٨] **وفي رواية:** « **يا بُنَيَّ إن متَّ ولَسْتَ عَلَى ذَلَكَ دَخَلْتَ النَّار** »**.**

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

« **لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ** » [رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، مجمع الزوائد / ١١٨٣٣] .

---

(٥٦) هذا تعريف النووي للقدر [شرح مسلم ١/ ١٥٤] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: ((**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**)) [الترمذي وصححه / ٢٥١٦] .

قدر الله تعالى لا يتعارض مع ما أُعْطِي الإنسانُ من الاختيار:

لا يتعارض الإيمان بالقدر مع ما أعطى الله تعالى الإنسان من الاختيار، ويتوهم بعض الناس أن القدر ينفي عن الإنسان اختياره، ويَكْثُرُ الجدل حول التساؤل عن الإنسان: هل هو مسير أم مخير؟ ويظن بعض الباحثين أنها مسألة معقدة، والواقع أنها بفضل الله تعالى سهلة واضحة .

الإنسان مُخَيَّرٌ أمْ مُسَيَّر ؟:

بأنوار التفقه في الدين يظهر الجواب عن هذا السؤال الذي ضلَّ فيه الكثير، وتحير فيه غيرهم، ومن ضياء العلم في هذا القضايا العلميةُ التاليةُ .

أنواع المقدرات بالنسبة لاختيار العبد :

كل ما يجري في هذا الكون بقدر الله تعالى، سواء تعلق بالإنسان أم لا .

والأمور المرتبطة بالإنسان نوعان:

الأول: لا خيار له فيه: وذلك كطول قامته وقصرها، ولون بشرته وشعره وعينيه، ونحو ذلك مما لا اختيار له في حصولها ولا قدرة له على تغييرها .

الثاني: أمور له فيها اختيار: كالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وما يختاره في أكله وشربه ونكاحه، وسائر الأمور التي يختارها وله القدرة على التغيير فيها .

والإنسان في النوع الأول مُسَيَّرٌ مُجْبَرٌ، ولذلك لا يدخل شيء منه في التكليف؛ إذ ليس للإنسان قدرة على شيء فيه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وفي النوع الثاني مخيرٌ غيرُ مجبرٍ؛ لأن الله تعالى أعطاه الاختيار، ولذلك حَمَّلَهُ اللهُ المسؤوليةَ عن كل عمل يدخل في هذا النوع .

وبهذا الجواب يتبين لنا وجه الحق في هذا الأمر .

ونقتدي في هذا الفهم بالصحابة الكرام ﷺ الذين رباهم خير المربين وأكمل المعلمين ﷺ .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، فأخبره أمراء الأجناد، أن الوباء قد وقع بأرض الشام .

فاستشار المهاجرين الأولين، ثم استشار الأنصار، ثم استشار مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، ثم قرر عدم الدخول إلى البلاد التي فيها الطاعون، وقرر الرجوع.

فقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ : أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر ﷺ : **لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله .**

أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عُدوتان، إحداهما خصيبةٌ، والأخرى جَدْبَةٌ، أليس إن رعيت الخِصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟ .

فجاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ وكان متغيِّباً فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**)) قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف **[البخاري / ٥٣٩٧ ومسلم / ٢٢١٩].**

ومن هذا الحديث تعلمنا الحجر الصحي قبل أن يعرفه الناس بقرون كثيرة .

ومما يرتبط بهذا المعنى من الأحاديث:

عن حكيم بن حزام ﷺ أنه قال يا رسول الله رُقًى كنا نسترقي بها وأدويةٌ كنا نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: ((**هِيَ مِنْ قَدَرِ الله عزَّ وجل**)) .

[الطبراني في الكبير/ ٣٠٩٠ / والحاكم/ ٧٤٣١]

وعن كعب بن مالك ﷺ أنه قال: يا رسول الله أرأيت دواءً نتداوى به ورُقًى نسترقي بها وأشياء نفعلها هل ترد من قدر الله ؟ قال: ((**يَا كَعْبُ بلْ هِيَ مِنْ قَدَرِ الله**)) .

[ابن حبان /٦١٠٠]

وعن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أرأيت رُقًى نسترقيها ودواءً نتداوى به وتقاةً نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: ((**هِيَ مِنْ قَدَرِ الله**)) **[الترمذي/ ٢٠٦٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وضعفه بعضهم لكن له شواهد تقويه]** .

فقد ذُكِرَ للنبي ﷺ في هذه الأحاديث أمور يفعلونها باختيارهم من التداوي والرُّقى التي يفعلونها باختيارهم يتقون بها ما يخشونه من ضرر الأمراض ونحوها، مما لا يملكون التصرف فيه

فأخبر أن الجميع من قدر الله عزَّ وجلَّ .

وكذلك عمر ﷺ أثبت أن تصرفاته ومعه الصحابة ﷺ ضمن قدر الله مع أنها مما له فيه الاختيار، « **نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ** » [البخاري / ٥٣٩٧ ومسلم / ٢٢١٩] .

الله تعالى أراد للعباد الاختيار ولكن الله تعالى لا يرضى بمعصية العباد :

يستطيع العبد أن يطيع ويعصي؛ لأن الله تعالى أراد للعباد أن يكونوا مختارين في الأمور التكليفية ولم يُرد أن يُجبرهم؛ فكل ما يفعله العباد بإرادته سبحانه، ولكن ليس كل ما يفعلونه برضاه .

يرضى منهم الطاعات، ويثيبهم عليها، ولا يرضى منهم المعاصي، ويستحقون عقابه عليها، فالإرادة شيء والرضى شيء آخر، وهذا مرتبط بالامتحان الذي أراده الله تعالى للبشر، ولو شاء الله هدايتهم جميعاً كالملائكة وإجبارهم على الطاعة فهو على كل شيء قدير، ولكنه بحكمته جعلهم مختارين وحمَّلَهم الأمانة والتكليف .

مِنْ أساسيات الإيمان الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ

بعد الإيمان بالله تعالى وبوحدانيته، ومعرفة صفاته والإيمان بأن محمداً ﷺ رسول الله تعالى، لا بد من الإيمان بكل ما جاء به رسول الله ﷺ من الوحي، سواء كان من أمور الغيب [**السمعيات**] (٥٧) أو من التشريع، أو غير ذلك؛ فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى .

أمور الدين تثبت بالسنة التي صحَّ نقلها كما تثبت بالقرآن :

وهذا الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ يدخل فيه الإيمان بما ذكر في القرآن الكريم، والإيمان بما أخبر به ﷺ في أحاديثه الشريفة .

وقد كان المسلمون في زمن النبي ﷺ يؤمنون بما يسمعونه من رسول الله ﷺ ويعملون به، ويؤمنون أيضاً بما ينقله الثقات إليهم من كلامه ﷺ ويعملون به .

يجب الإيمان بمتواتر السنة وبالصحيح غير المتواتر :

لقد نقلت لنا عن النبي ﷺ أمور متواترة نقلتها الجموع الكثيرة من الأمة، ونقلت لنا أيضاً أمور بالأسانيد المتصلة الصحيحة من رواية الثقات ولكنها غير متواترة، وقد أوجب الشرع الحنيف علينا أن نقبل ما رواه الثقات وإن لم يتواتر، بل ولو رواه ثقة واحد .

والنبي ﷺ نفسُهُ كان يرسل بدعوته وأوامره ونواهيه الرجل الثقة الواحد مُبَلِّغاً عنه، وهذا أمر كثير لا ينكره من له أدنى معرفة بسيرة النبي ﷺ وحياته .

وربما أشكل على بعض الإخوة ما وُجد في كلام بعض أهل العلم من ربط العقيدة بالمتواتر، وتفريقِهم بين المتواتر والآحاد .

والجواب عن هذا الإشكال أنَّ من فرق بين المتواتر والآحاد فإنما يفرق بين الإيمان بأمرٍ قطعيٍّ يكفر منكره، وبين الإيمانِ بأمر لا يكفر منكره .

مثال الأول: الإسراء بالنبي ﷺ ، ومثال الثاني: أن النميمة وعدم الاستنزاه من البول من أسباب عذاب القبر .

---

(٥٧) المراد بالسمعيات الأمور الغيبية التي يعرفها المؤمنون عن طريق الوحي من القرآن أو السنة .

فمنكر الأول كافر؛ لأن عدم إيمانه بمثل هذا يلزم منه تكذيب القرآن الكريم وتكذيب النبي ﷺ بخلاف منكر الثاني فإنه يكون عاصياً؛ لإنكاره ما ألزمنا الشرع بقبوله، ولا يلزم من إنكاره ما يقتضي الكفر [٥٨] .

مما جاء به ﷺ من السمعيات:

لا يموت إنسان إلا بأجله :

ومما جاء به ﷺ أن الإنسان لا يموت إلا في الوقت الذي كتبه الله له، لا يتقدم ولا يتأخر، سواء مات على فراشه أو مات قتلاً، قال عز وجل: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف/ ٣٤] .

وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [آل عمران/ ١٥٦] .

وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** ﴾ . [آل عمران / ١٥٤]

وقال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المنافقون/ ١١– ١٢] .

ومما جاء به ﷺ مضاعفة الحسنات:

ومما جاء به ﷺ أن الله تعالى يضاعف الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها إلا أن الحسنات قد يضاعفها الله أكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

(٥٨) وقد أخذ بعض المشككين في ديننا بعض ما ذكره أهل العلم من التفريق بين المتواتر والآحاد وجعلوا يُلقونه على من لا صلة له بالعلوم الشرعية ولا بالعلماء من أجل تشكيكهم بجوانب من العقيدة وبالأحكام الشرعية، وإذا أردت التفصيل في هذه المسألة ومعرفة بعض ما ترد به تلك الشبهات وجدته في الملحق رقم (٨) في آخر هذا الكتاب .

قال سبحانه: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٦٠] .

وقال عز وجلّ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/ ٢٦١] .

وعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: ((إنّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ ثُمّ بَيّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزّ وَجَلّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ هَمّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيّئَةً وَاحِدَةً)) [البخاري / ٦١٢٦ مسلم ١٣١] ..

الذنوب صغائر وكبائر :

ومما جاء به ﷺ أنَّ الذنوب نوعان: كبائر وصغائر .

وأنَّ التوبة إلى الله تعالى يغفر الله بها الكبائر والصغائر؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه/ ٨٢] وقال سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم/ ٥٩-٦٠] .

والصغيرة يغفرها الله تعالى أيضاً بترك الكبائر وبالأعمال الصالحة (٥٩) .

قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء/ ٣١] .

---

(٥٩) ينبغي أن يتذكر العبد أن الاستهانة بالمعصية الصغيرة والإصرار عليها يجعلها كبيرة وأن الكبائر ليست محصورة في السبع الموبقات بل هي كثيرة، وأن يتذكر أيضاً أنّ من الكبائرِ كبائرَ باطنة قد تخفى على كثير من الناس، قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام / ١٥١] .
فقد يتصف الإنسان بالكبر الذي فسره ﷺ بأمرين الأول بطر الحق (رفض الحق) والثاني غَمْطُ الناس – أي احتقارهم – وقال عن هذه الفاحشة الباطنة التي قد يتصف بها الإنسان وهو لا يشعر: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)) [مسلم / ٩١] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ ((**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**)) [الإمام أحمد٢/ ٤٠٠ ومسلم / ٢٣٣] .

الله تعالى لا يغفر أن يُشرَك به إلا بالتوبة :

ومما جاء به ﷺ أنَّ المشركين لا يغفر الله لهم .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً** ﴾ [النساء / ٤٨] .

والكفار معذبون في النار لا يخرجون منها، والجنة محرمة عليهم، قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ [المائدة/ ٧٢] وقال سبحانه: ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ** ﴾ [النساء / ٤٨] .

ولكنه يُغْفَرُ لهم إذا تابوا وتركوا كفرهم وآمنوا بالله تبارك وتعالى وبرسوله ﷺ، قال سبحانه: ﴿ **قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ** ﴾ . [الأنفال/ ٣٨]

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ((**فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**)) [مسلم / ١٢١] .

ذنوب عصاة المؤمنين راجعٌ أمرها لمشيئة الله تعالى :

ومما جاء به ﷺ أنَّ من عصى الله تعالى من المؤمنين ولم يتب يستحق عذاب الله تعالى، لكن من الممكن أن يغفر الله تعالى له قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النساء / ٤٨] .

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ –أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ((**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ**

لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ)) [البخاري ١٨ مسلم ١٧٠٩] .

المسلم لا يكفر بارتكاب الكبائر :

ومما جاء به ﷺ أنَّ المسلم لا يكفر بارتكاب المعاصي وإن كانت من الكبائر وهو داخل تحت مشيئة الله في المغفرة ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً** ﴾ [النساء/ ٤٨] .

قال أهل العلم وما ورد من الوعيد على ارتكاب المعاصي من الأدلة التي قد يُفْهَمُ منها الكفرُ أو الخلودُ في النار فليس معناه أنهم يكفرون بتلك المعاصي .

ويجب فهم الأدلة وتفسيرها بما يتفق مع دلالة الأدلة الأخرى من القرآن والسنة، لأنه لا تناقض بين الأدلة الشرعية الواردة في القرآن وسنة النبي ﷺ .

ومن الأمثلة التي قد يفهم منها الكفر قول النبي ﷺ : ((**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**)) [البخاري / ٤٨ ومسلم / ٦٤] .

فيفسر الكفر هنا بكفر نعمة الله علينا بهذا الدين الذي يقتضي الأخوةَ والمحبةَ والرحمةَ، فإذا قاتل أخاه فقد كفر هذه النعمة أو يفسر بنحو ذلك مما ذكره الراسخون في العلم في شرح هذا الحديث .

وليحذر المسلم في هذا العصر من الانحراف عن هدي رسول الله ﷺ في الحكم بالكفر على من ارتكب بعض الكبائر، وهي جريمة وقع فيها كثير من المسلمين في هذا العصر بسبب التبعية العمياء المترافقة مع قلة العلم .

فقد تجددت فكرة التكفير بين الناس وصار كثير منهم مثلَ الخوارج أو أبعد منهم عن هدي رسول الله ﷺ وعمَّا كان عليه أصحابه ﷺ .

وصار القذف بالكفر على ألسنة كثيرين يكفرون إخوانهم لأيِّ رأيٍ يخالف آراءهم، حتى تناول قذفهم المسلمين بالكفر كثيراً من علماء المسلمين المعاصرين والسابقين، وقد حذر رسول الله ﷺ من هذه الفتنة في أحاديث كثيرة (٦٠).

---

(٦٠) إذا أردت زيادة في هذا البحث المهم ومعرفة أقوال أهل العلم فيه وجدت ذلك في الملحق رقم (٩) الذي تجده في آخر هذا الكتاب .

من مقتضيات الإيمان الاعتراف بفضل أهل البيت ﷺ والصحابة ﷺ ومحبتهم

وأختم هذه الأمور الإيمانية التي جاء الوحي بها إلى رسول الله ﷺ بذكر شيء من فضل خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وهم **أصحابه وأهل بيته رضي الله تعالى عنهم** ليكون ذلك معيناً لنا على ما وجب علينا من احترامهم ومحبتهم .

إذ لا خيار لمؤمن في ذلك؛ فكل من آمن بالنبي ﷺ لا بد أن يحبه ويحب ما يرتبط به، وأقرب الناس إليه أهلُ بيته من أزواجِه وأقربائِه، وأصحابُه ﷺ، وخيرُ هؤلاء الصحابةِ هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﷺ .

قال تعالى: ﴿ **قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ [الشورى/ ٢٣] .

وقال سبحانه: ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً *وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً *وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيراً** ﴾ .

[الأحزاب/ ٣٢-٣٤] .

وأزواج النبي ﷺ ورضي الله عنهن من أهل البيت كما تَدُلُّ الآيات السابقة، وفضيلة أهل البيت تعم جميع المؤمنين من أقرباء النبي ﷺ .

لكنَّ هذا الفضل وإن كان يعم جميع أهل البيت ﷺ فإنَّ للسيدة فاطمة ولزوجها عليٍّ وابنيها الحسنِ والحسينِ ﷺ مزيةً على بقية أهل البيت ﷺ أجمعين، ومما يدل على ذلك:

عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: « **كُنّ أَزْوَاجُ النّبِيّ ﷺ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنّ وَاحِدة، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي، مَا تُخْطِئُ مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ شَيْئاً، فَلَمّا رَآهَا رَحّبَ بِهَا، فَقَالَ: مَرْحَباً بِابْنَتِي، ثُمّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ .**

ثُمّ سَارّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيداً، فَلَمّا رَأَى جَزَعَهَا سَارّهَا الثّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصّكِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسّرَارِ، ثُمّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمّا قَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ سِرّهُ .

قَالَتْ: فَلَمّا تُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ، بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقّ، لَمَا حَدّثْتِنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ: أَمّا الآنَ، فَنَعَمْ .

أَمّا حِينَ سَارّنِي فِي الْمَرّةِ الأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلّ سَنَةٍ مَرّةً أَوْ مَرّتَيْنِ، وَإِنّهُ عَارَضَهُ الآنَ مَرّتَيْنِ، وَإِنّي لاَ أُرَى الأَجَلَ إِلاّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتّقِي اللّهِ وَاصْبِرِي، فَإِنّهُ نِعْمَ السّلَفُ أَنَا لَكِ .

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الّذِي رَأَيْتِ، فَلَمّا رَأَى جَزَعِي سَارّنِي الثّانِيَةَ فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْ أَنْ تَكُونِي سَيّدَةَ نِسَاء الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمّةِ؟ قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الّذِي رَأَيْتِ)) .

[البخاري / ٣٤٢٦ مسلم / ٢٤٥٠]

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: ((**كَانَ عَلِيٌّ قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا فَقَالَ أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ عَلِيٌّ فَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ** .

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ اللَّيْلَةِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ فِي صَبَاحِهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ – أَوْ لَيَأْخُذَنَّ بِالرَّايَةِ – غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ قَالَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا نَحْنُ بِعَلِيٍّ وَمَا نَرْجُوهُ فَقَالُوا: هَذَا عَلِيٌّ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّايَةَ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ)) .

[البخاري / ٣٤٩٩ومسلم /٢٤٠٧ واللفظ لمسلم]

وعن أبي بكرة ﷺ قال رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي رضي الله عنهما إلى جنبه، وهو يُقْبِل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: ((**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِن الْمُسْلِمِينَ**)) **[البخاري / ٢٧٥٧]**.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : ((**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)) **[الإمام أحمد/ ١١٠١٢ والترمذي وصححه / ٣٧٦٨ وابن حبان / ٦٩٥٩]** .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: خرج النبي ﷺ .... فجلس بفناء بيت فاطمة فجاء الحسن ﷺ يشتد حتى عانقه وقبله وقال: ((**اللَّهُمَّ أَحْبِبْهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**)) **[البخاري / ٢٠١٦ومسلم /٢٤٢١]** .

وعن حذيفة ﷺ قال : أتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب ثم قام يصلي حتى صلى العشاء ثم خرج فاتبعته فقال : ((**عَرَضَ لِي مَلَكٌ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَبَشَّرَنِي أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)) **[الإمام أحمد/ ٢٣٣٧٧ الترمذي وحسنه / ٣٧٨١ وابن حبان / ٦٩٦٠]** .

ومما يذكرنا بفضل هؤلاء الكرام أنَّ من ديننا أن نصلي عليهم في صلاتنا كلما صلينا على النبي ﷺ بعد التشهد الأخير .

فضل السابقين الأولين :

ومما جاء به ﷺ وجوب محبة أصحابه ﷺ رضي الله تعالى عنهم واحترامهم؛ فأصحابه ﷺ خير هذه الأمة .

وأفضلهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، الذين أخبرنا الله تعالى في كتابه القويم برضاه عنهم، قال الله تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة/١٠٠] .

فضل أهل بيعة الرضوان وأهل بدر:

وقال سبحانه: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾ [الفتح/ ١٨].

وعن جابر ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية ((**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ**)) وكنا ألفاً وأربعمائة .[البخاري / ٣٩٢٣ ومسلم / ١٨٥٦] .

وعن رفاعة بن رافع الزُّرَقِيِّ ﷺ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: ((**مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ**)) أو كلمة نحوها قال: **وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلائِكَةِ** [البخاري / ٣٧٧١] .

خير قرون هذه الأمة الصحابة ﷺ :

وقال رسول الله ﷺ ((**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**)) .

[البخاري / ٦٣١٧ مسلم / ٢٥٣٣]

لا يبلغ أحد درجة الصحابة ﷺ :

وقال ﷺ : ((**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**)) [البخاري/ ٣٤٧٠ مسلم / ٢٥٤٠] .

وخير هؤلاء الصحابة ﷺ الخلفاءُ الراشدون، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وقد ثبت في فضل كلٍّ منهم أحاديث كثيرة، وهم القدوة الثانية للأمة بعد نبيها ﷺ ، وما كانوا عليه هو الضياء عند ظلمات الفتنِ والاختلافِ قال ﷺ : ((**فَإِنّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنّتِي وَسُنّةِ الْخُلَفَاء الرّاشِدِينَ المَهْدِيّينَ تَمَسّكُوا بِهَا، وَعَضّوا عَلَيْهَا بِالنّوَاجِذِ**)) [الترمذي وصححه / ٢٨١٦وأبو دواد/ ٤٦٠٧] .

هذا وقد حدثت فتنة في أواخر عهد الخلفاء الراشدين ﷺ سداها ولحمتها من مكر وكيد أعداء أمة سيدنا محمد ﷺ أطفأ الله تعالى نارها على يد سيد شباب أهل الجنة سيدنا الحسن

ﷺ، كما أخبر رسول الله ﷺ في الحديث السابق: « **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** » [البخاري/٢٧٥٧] ولكنَّ كيد أعداء الإسلام لم يتوقف وتجددت الفتن وبُنِيَ عليها كثير من الروايات المكذوبة التي تُشَوِّهُ صورة أفضل عصور هذه الأمة التي أخبر الله تعالى بأنها خير الأمم .

لقد كانت علاقة أئمة أهل البيت عليٍّ والحسنِ والحسينِ ﷺ مع سائر الصحابة عموماً ومع الخلفاء الراشدين خصوصاً أطيب العلاقات [٦١]، وكانت المودة والاحترامُ بينهم في أسمى

---

(٦١) ومن نماذج حُسن العلاقة والمحبة فيما بينهم، ما رواه عقبة بن الحرث قال: خرجت مع أبي بكر الصديق ﷺ من صلاة العصر بعد وفاة النبي ﷺ بليال وعلي ﷺ يمشي إلى جنبه، فمر بحسن بن علي رضي الله عنهما يلعب مع غلمان فاحتمله على رقبته وهو يقول:

« **وا بِأَبِي شَبِيهٌ بِالنَّبِيِّ لَيْسَ شَبِيهاً بِعَلِيٍّ** » **وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ** . **[الإمام أحمد / ٤٠ والبخاري/ ٣٣٤٩]**

وإذا عرفنا بما مضى من الأدلة فضلَ أهل البيت ﷺ وفضلَ الصحابة ﷺ عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ لزم أن نعرف أنَّ من الواجب حبَّهم واحترامَهم، وهذا ثمرة لا بد منها، فمحبتنا لله تعالى ولرسوله ولدينه تقتضي محبة كلِّ من لهم فضل عند الله تعالى .

ولا يمكن لإنسان أن يحب هذا الدين ويحب رسول الله ﷺ ولا يحب أو لا يحترم آله وأقرباءه الكرام، وقد عرفنا فضلهم بما تقدم من الأدلة .

كما أنه لا يمكن لإنسان أن يحب هذا الدين ويحب رسول الله ﷺ ولا يحب أو لا يحترم أصحابه الكرام، وقد عرفنا فضلهم بما تقدم من الأدلة .

لقد ورث العلماء من آلِ النبي ﷺ وأصحابِه هذا الدين، ووصلنا هذا الدين عن طريقهم وبجهادهم، وإننا سعداء بمحبتهم جميعاً، ونرجو الله تعالى أن يحشرنا معهم بمحبتنا إياهم .

ولو أن رجلاً من الكافرين استضاء قلبه بنور الإيمان فآمن ونطق بالشهادتين فإننا وبِلا خيار مِنَّا نجد أنَّ محبته حلت في قلوبنا ولو كان له في الكفر عشرات الأجداد، فكيف بأولئك الكرام الذين ثبت فضلهم في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ .

إن حبَّهم حبٌّ لله تعالى، وهذا الحب أوثق عُرى الإيمان، ومن أحبهم أحبه الله تعالى، ومن أبغضهم أبغضه الله تعالى، وهذا يشمل كل مؤمن حصلت منه أيُّ نصرة لدين الله تعالى .

عن البراء ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ** » **[البخاري / ٣٥٧٢ ومسلم / ٧٥]**

وقضية الحب لوجه الله تعالى أكبر من ذلك، لأنها لا تخص المؤمنين الصالحين فحسب، بل تشمل المؤمنين العاصين؛ فمن آمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ ثم شرب الخمر أو زنى أو ارتكب كبيرة أخرى من الكبائر غير مستحل للمحرمات فإن ذلك لا يخرجه عن الإيمان، ولا يكفر بارتكابه لتلك المحرمات، وهو أخٌ

معانيهما، ونرجو الله تعالى أن يتوفانا على الإيمان وعلى الأحوال الصالحة التي كانوا عليها ومنها محبة بعضهم بعضاً ومحبة كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، مع سلامة الصدر من الشحناء عسى أن نُحشرَ معهم ونراهم جميعاً في الجنة في أعلى درجاتها إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .

لنا شئنا أم أبينا، وعلاقتنا معه علاقة الأخوة، وله علينا حقوق الأخوة، فلا بد لنا من محبته، كما أنه لا بد لنا من كراهية معصيته .

كان رسول الله ﷺ يؤتى بالعاصي الذي ارتكب معصية توجب حداً، والنبي ﷺ حاكمُ الأمة لا خيار له إلا أن يطبق شرع الله تعالى في إقامة الحدود، التي لا بد منها لمنع الفساد في الأرض فيأمر بإقامة الحد، وتنفيذ العقوبة، ولكنه ﷺ تبقى نظرته الطيبة لأولئك العصاة بسبب إيمانهم ومراعاة لحقوق الأخوة التي فرضها الله تعالى، وتظهر لك بعض هذه المعاني في الأحاديث التالية:

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله أصبت حداً فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليَّها فقال: ((**أَحْسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا**)) ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشكت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر رضي الله عنه: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: ((**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى ؟**)) .

[الإمام أحمد/ ١٩٨٧٤و مسلم / ١٦٩٦]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يُضْحِكُ رسولَ الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتِيَ به يوماً فأمر به فَجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يُؤتَى به! فقال النبي ﷺ : ((**لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ – مَا عَلِمْتُ– إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**)) **[البخاري/ ٦٣٩٨]** .

قال في فتح الباري / ٧٨: وفيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب؛ لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تُنْزَع منه محبة الله ورسوله، وأن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يراد به زواله بالكلية بل نفي كماله .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إني لأذكر أول رجل قَطَعَهُ رسول الله ﷺ، أتي بسارق فأمر بقطعه، فكأنما أَسِفَ وجهُ رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله كأنك كرهت قطعه، قال: ((**وَمَا يَمْنَعُنِي؟ لاَ تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ، إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَدٌّ أَنْ يُقِيمَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور/٢٢]**)) .

[الإمام أحمد / ٤١٦٨والحاكم / ٨١٥٥]

الفصل الثالث ميزان الإيمان

ضرورة الحرص على قوة الإيمان :

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ** » [الإمام أحمد / ٨٧٧٧ ومسلم / ٢٦٦٤] .

وإذا كان تحصيل القوة مطلوباً من المسلم في كل جانب في حياته فإنها مطلوبة أكثر في جانب الإيمان، وعندما يسعى المؤمن حريصاً مستعيناً بالله تعالى على تحصيل ما هو مطلوب منه من أنواع القوة فإنه يحتاج إلى إجراء حسابات ليرى المستوى الذي وصل إليه، ويساعده على ذلك وجود موازين يزن بها ما وصل إليه لينتقل إلى تحصيل ما لم يتحقق عنده مما يرجو الوصول إليه .

فإذا كان عنده ضعف في جسده بسبب زيادة السكر، أو الشحوم، أو ارتفاع ضغط الدم، احتاج إلى موازين السكر والضغط وغيرها ليتبين له ما هو فيه؛ ليعرف ما سيفعله من التصرفات النافعة لهذا الجسد .

وكذلك الإيمان له ميزان أرشدتنا إليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ.

ميزان الإيمان له جانبان :

وهذا الميزان له جانبان يُعْرَفُ بهما قوة أو ضعف الإيمان:

الجانب الأول: الأحوال والصفات والأعمال التي أرشدنا الله إليها ومدح أهلها، وهي جوانب إيمانية تعتبر من فروع الإيمان، ومكملاته، لا يكون الإنسان مؤمناً حقاً إلا بها، وهي شعب الإيمان التي ذكرها رسول الله ﷺ بقوله: « **الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً . وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَان** » [البخاري / ٩ ومسلم/ ٣٥] وفي رواية: « **فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَان** ».

وأما الجانب الثاني: فهو الأحوال والصفات والأعمال التي حرمها الله علينا، وذمها، أو ذم أهلها، وهي المحرمات والفواحش .

وكل من الجانبين فيه خصال ظاهرة وخصال خفية، وكما جاء الإسلام بالفضائل الظاهرة مثل بِرِّ الوالدين وصلة الرحم، والفضائل الخفية كخشية الله تعالى، والحياء منه، فكذلك

جاء بتحريم الفواحش ما ظَهَرَ منها كالزنا وأكل أموال الناس بالباطل، وما بَطَنَ كالكبر والشحناء والرياء .

وبعد هذا البيان يليق بنا أن نحرص على ما ينفعنا، ويتفقد كل منا ما عنده من الأحوال والأعمال والصفات، وأن نسعى – مستعينين بالله تعالى – للتخلصِ مما نحن فيه من سوء، والاتصافِ بما نفقده من شعب الإيمان وأحوال الصالحين .

ومما يفيدنا في هذا تدبر آيات القرآن الكريم في أمره ونهيه، ومدحه وذمه، وفي قصصه وأخباره، وفي ذكره لعوالم الآخرة وأحوالها، وكذلك في سنة النبي ﷺ وأحاديثه، وأخباره مع السابقين الأولين من الصحابة ﭫ الذين نالوا من أعظم المربين ﷺ مِنَ التربية والتزكية والفضائل ما جعلهم أهلاً ليكونوا قدوة صالحة للأمة الإسلامية في كل العصور بإرشاد القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة/ ١٠٠] .

فالموفق يحرص على صفات السعداء الذين إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً الذين إذا قرأ أحدهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة/ ٥] وقف عندها ملتجئاً إلى الله تعالى، متسائلاً: لقد حُمِّلْتُ القرآن الكريم فهل حَمَلْتُه كما يحب ربنا ويرضى؟ ألا يوجد عندي جانب من هجر القرآن الكريم؟ ثم يستغفر الله تعالى من تقصيره، ويدعو ربه تعالى أن يوفقه لتدبره والعمل به ليكون حجة له يوم القيامة .

وهكذا عندما يقرأ ما يرتبط بصفات الصالحين كقوله تعالى: ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة/ ١٦] ونحوِها فإنه يستصغر نفسه ويستغفر ويتضرع إلى الله تعالى أن يلحقه الله تعالى بالصالحين، وهكذا يتفاعل قلبه عند تلاوته للقرآن الكريم يتدبر ويتعظ ويتضرع ويتبتل إلى الله تعالى، قدوته في هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ﭫ .

عن حذيفة ﭬ قال: « **صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، وَفِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى، قَالَ: وَمَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ وَقَفَ عِنْدَهَا فَسَأَلَ: وَلاَ آيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ تَعَوَّذَ مِنْهَا** » [الإمام أحمد/ ٢٣٢٨٨ و أبو داود /٨٧١ والترمذي /٢٦٢]

ومما ينفعنا في هذا أن ندرس ما كتبه أهل العلم في بيان شعب الإيمان ككتاب **شُعب الإيمان** للبيهقي مع النظر إلى أحوال الصحابة ﷺ في هذه الشعب .

ومما بينه البيهقي في هذا الكتاب من شعب الإيمان الأمور التالية:

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما – وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله – وأن يكره أن يعود في الكفر – والخوف من الله عز وجل – والرجاء من الله عز وجل – والتوكل على الله عز وجل – وتعظيم النبي وتبجيله — والتفقه في الدين — واحترام أهل العلم والفضل وتبجيل أهله وحفاظه – والإيفاء بالعقود — وتعديد نعم الله تعالى وحمده وشكره عليها – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – والتعاون على البر والتقوى – وبر الوالدين – وصلة الأرحام — وحسن الخلق – ورد السلام – وعيادة المريض – وإكرام الجار والضيف – والزهد وقصر الأمل – والإعراض عن اللغو – والجود والسخاء – ورحمة الصغير وتوقير الكبير – وإصلاح ذات البين – وأن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه .

وإذا كان كلٌّ منا بحاجة إلى الاهتمام بالجانب الأول في تحصيل الفضائل والكمالات فإننا بحاجة أن نهتم بالجانب الثاني فنحذر من الأعمال والصفات التي حرمها الله تعالى، وذمَّ أهلها، وخصوصاً ما يجده المسلم حوله وفي بيئته من المفاسد العملية والخلقية، فقد حرم ربنا سبحانه الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكذلك ذكر لنا صفات كثيرة ذمَّ الله تعالى بها كَفَرَةَ بني إسرائيل، والمنافقين لنعتبر؛ فينبغي للمؤمن أن يعرض نفسه عندما يتلو القرآن الكريم على تلك الصفات السيئة، يزن بها إيمانه، ويخشى على نفسه أن يكون فيه بعضها .

هذا وقد كثر في زماننا مرض الغرور، والأمنِ من عذاب الله؛ فيليق بنا ألا يُحْسِنَ أحدنا الظن بنفسه وألا يعيشَ آمناً وكأنه جاوز الصراط ودخل الجنة، ولا ينبغي أن ننسى في جميع أحوالنا أنَّ كل واحد منا مُعَرَّضٌ للخسران ولعذاب الله عزَّ وجلَّ .

إنَّ أحدنا عندما يظن بنفسه الخير، وتَقِلُّ في قلبه خشية الله تعالى ويقلُّ عنده الخوف من سوء الحساب يحرم نفسه صفةً من أعظم صفات أولي الألباب، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** * ... **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾ [الرعد/١٩–٢١] .

هذا وإنَّ ما ذُكر في هذا الفصل تذكرة ينتفع بها من أراد الله تعالى لهم الخير، وليست قضية دراسةِ معلوماتٍ يستضيء بها العقل فحسب، بل هي ضياء للقلوب ينتفع بها من يحرص

على النجاة، ويستعين بالله تعالى، عاملاً بقوله ﷺ « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ** » [مسلم / ٢٦٦٤] .

ومع كلٍّ ما تقدم فإني لا أُقَنِّطُ من رحمة الله تعالى وأحذر مما يلقيه الشيطان في قلوب بعض الشباب الطيبين من اليأس والقنوط بسبب ما يلقيه هو في نفوسهم من خواطر ووساوس كفرية، ومن المفيد أن يعلم المؤمن أن هذه الخواطر ليست منه بل هي من وساوس الشيطان التي لا تضر المؤمن، ولا يسأل عنها يوم القيامة وقد حصل مثل هذا مع بعض الصحابة ﵃ [٦٢] .

---

(٦٢) سيجد القارئ الكريم تفصلات وأدلة هذه القضية في الملحق رقم (١٠)

الفصل الرابع

ملحقات من أجل تمام الفائدة

الملحق رقم (١) حوار هرقل ملك الروم مع أبي سفيان قبل أن يُسلم

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنَّ أبا سفيان بن حرب ﷺ أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشأم في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه .

فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثِروا عليَّ كذباً لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب .

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت: لا .

قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت: لا .

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت: بل ضعفاؤهم .

قال: أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون .

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت: لا .

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا .

قال: فهل يغدر ؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها،قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .

قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .

قال: ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال: للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله .

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب مُلك أبيه .

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك: أيرتد أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك: هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك: بِمَ يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .

وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم حتى أخلص إليه لتَجَشَّمْتُ لقاءَه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: « **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران/ ٦٤]** » .

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخْرِجْنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك نبي الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام

ثم ذكر في آخر الحديث أن أُسْقُفَّ نصارى الشام ابنَ الناطور حَدَّثَ أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس، وأنه قال لبعض بطارقته: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختن من هذه الأمة؟ قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود .

فبينما هم على أمرهم أُتِيَ هرقل برجل أرسل به ملكُ غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبر هرقل عن العرب فقيل له: هم يختتنون قال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر .

وأنَّ هرقل أذن لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم علي وقال إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل .

[البخاري / ٧ اهـ باختصار وتصرف في النصف الأخير من هذه الصحيفة الأخيرة من أجل التوضيح]

الملحق رقم (٢) الإلهام و الرؤيا الصالحة لا ينتج عنهما علم

لا يُقصد بهذا الكلام نفيُ وجود الإلهام ولا نفيُ الرؤيا الصالحة، ولا نفيُ أنَّ من رأى رسول الله ﷺ في المنام أنَّه رآه حقاً، فهي أمور ثابتة بالأحاديث الصحيحة، ومنها حديث : « **وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي** » **[البخاري/ ٥٨٤٤مسلم / ٢٢٦٦]** وحديث: « **قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ مِنْهُمْ** » **[البخاري/ ٣٢٨٢ مسلم / ٢٣٩٨]** وحديث « **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ** » **[البخاري/ ٣١١٨ مسلم / ٢٢٦١]** كلُّ هذا معروف وصحيح ثابت، ولا يجوز إنكاره، ولكنَّ المقصود نفيُ الاعتماد على ذلك في أمر ديني أو دنيوي استقلالاً؛ لأنَّ هذا الاعتماد باب من أبواب الضلال والخسران .

ويتوهم بعض المسلمين المبتعدين عن المنهج العلمي وجودَ أمور يعتمدون عليها، في دينهم أودنياهم، ويظنون أن في اعتمادهم عليها خيراً، والواقع أن في ذلك تضييعاً لدنياهم، وانحرافاً عن دينهم .

ومن ذلك الاعتماد على الإلهام، أو الرؤيا الصالحة ولو كان المرئيُّ فيها النبيَّ صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

ولا شك أن بعض من يقرأ هذا الكلام يستغربه، وقد ينكره، لكني أقول لهؤلاء الإخوة لا تستعجلوا فهذا ما أرشدَتْ إليه الأدلة الشرعية التي يجب الاعتماد عليها، وهو ما قاله الراسخون في العلم الذين تثقون بعلمهم .

وسيكون بيان هذا التحذير في مسألتين: الأولى: أنه لا يصح الاعتماد على الإلهام، **والثانية:** أنه لا يصح الاعتماد على الرؤيا الصالحة .

المسألة الأولى: لا يصح الاعتماد على الإلهام:

الإلهام إلقاء معنى في القلب ينشرح له الصدر ويرتاح إليه القلب، وهو نور يجعله الله تعالى في قلب العبد، يزداد به فهمه، ويقوى به رأيه، ومِنَ الملهمين مَنْ شهد له رسول الله ﷺ بذلك وهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: « **قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ مِنْهُمْ** » **[البخاري/٣٢٨٢ مسلم / ٢٣٩٨]** .

وأهل العلم لا ينفون وجود الإلهام، ولا ينكرون العمل به إذا كان في أمر قامت عليه الأدلة الشرعية .

فمن وجد في قلبه إلهاماً أن يصل الرحم بزيارة أخته، أو أن يتصدق على مسكين، أو يتفقد حاجة جيرانه قياماً بحقوقهم، فعمل بذلك، فهو أمر طيب، لأنه عامل في هذه الأمور بكتاب الله تعالى وهدي رسول الله ﷺ .

أما إذا وجد في قلبه ما ليس له مستند شرعي، كأن يخطر على قلبه أنه إذا قال في وقت مخصوص: يا عزيز يا قهار [٤٨٧] مرةً مثلاً أو نحو ذلك فَرَّجَ الله تعالى كربه، فلا يعتمد على ذلك، ولا يعمل به؛ لأن هذا الإلهام لا يفيد علماً، ويُبْعِدُ عن العمل بسنة النبي ﷺ في الأذكار، وكذلك لا يعمل بالإلهام من ليس له مستند من الخبرة في التجارة إذا وجد في قلبه أن يبيع بضاعته خلال يومين فقط لأن السعر سيهبط .

ثم إنَّ الاعتماد على الإلهام في أمر من الأمور مخالف لهدي القرآن الكريم، وهو ابتعاد أيضاً عن هدي رسول الله ﷺ وما ربَّى عليه أصحابه الكرام ﷺ قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء / ٣٦] .

وعلينا أن ننظر إلى الصحابة ﷺ الذين هُمْ خير هذه الأمة، والذين رباهم أعظم المربين ﷺ وهم أصحُّ الناس إلهاماً وأكثرهم صفاء وأطيبهم قلوباً، وفيهم سيدنا عمر الذي شهد له رسولُ الله ﷺ بأنه من الْمُحَدَّثين لم يكن هو ولا أحد من الصحابة ﷺ يعتمدون في يوم من الأيام على الإلهام في أمر من الأمور.

وإذا توهم أحد العمل بانشراح الصدر اعتماداً على حديث قتال مانعي الزكاة الذي يقول فيه عمر ﷺ : « **فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ** » [البخاري/ ١٣١٢ مسلم / ٢٩] قيل له: هذا الفهم غير صحيح؛ لأن معرفة عمر ﷺ للحق كانت بسبب الدليل الذي ذكره الصديق ﷺ لا بسبب انشراح الصدر .

وقد أدرك العلماء عند شرحهم هذا الحديث خطر الفهم الباطل من الحديث فركزوا على الفهم الصحيح .

قال النووي في شرح مسلم: معنى قوله: « **عرفت أنه الحق** » أي بما أَظْهَرَ من الدليل وأقامه من الحجة، فعرفت بذلك أن ما ذهب إليه هو الحق اهـ .

وكذلك ابن حجر في الفتح يقول: « **عرفت أنه الحق** » أي ظهر له من صحة احتجاجه اهـ.

وقد نقل ابن حجر رحمه الله تعالى عن أبي المظفر السمعاني في كتابه قواطع الأدلة أنَّ بعض المبتدعة يحتجون بالإلهام ويحتجون بقوله تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس / ٨] فسماهم مبتدعةً وردَّ عليهم بقوله:

وحجة أهل السنة الآياتُ الدالة على اعتبار الحجة، والحثِّ على التفكرِ في الآيات والاعتبارِ والنظرِ في الأدلة، وبأن الخاطر قد يكون من الله وقد يكون من الشيطان وقد يكون من النفس، **وكل شيء احتَمل أن لا يكون حقاً لم يوصف بأنه حق** .

قال: والجواب عن قوله: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ أن معناه عَرَّفَها طريقَ العلمِ وهُوَ الحُجَجُ .

ثم قال: ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه يزداد به نظره، ويقوى به رأيُه، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله، ولا نزعم أنه حجة شرعية وإنما هو نور يختص الله به من يشاء من عباده فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة، اهـ [فتح الباري ١٢/ ٣٨٨ وقواطع الأدلة ٢/ ٣٤٨ وما بعدها] .

وقد أكثر أهل العلم تحذيراتهم في هذا الأمر .

فهذا الإمام النسفي رحمه الله تعالى بعد أن بين وسائل العلم للخلق رأى خطر الاعتماد على الإلهام فقال: **والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق** اهـ .

وقال الشيخ زكريا الأنصاري عن الإلهام عندما عرفه في كتابه الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ص ٦٨ : **وليس بحجة من غير معصوم** .

وقال ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج ٩/ ٨٩: **وهو – أي الإلهام – ليس بحجة عند الأئمة، إذ لا ثقة بخواطر من ليس بمعصوم** .

وقال العطار في حاشيته: **والحق كما قال صاحب متن العقائد النسفية: والإلهام ليس من أسباب المعرفة** . [البناني على المحلي على جمع الجوامع٢/٣٥٦، وحاشية العطار٢/٣٩٨]

وقال السبكي في جمع الجوامع: مسألة: **الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر يخص به الله تعالى بعض أصفيائه، وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره ا.هـ** قال المحلي في شرحه: **لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان فيها** .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ** ﴾ من سورة الكهف:

المقَرَّرُ في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء؛ لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل لوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ** ﴾ وبخبر: « **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** » [**الترمذي وقال حديث غريب / ٣١٢٧**] كله باطل لا يعول عليه لعدم اعتضاده بدليل، وغيرُ المعصوم لا ثقة بخواطره لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضُمِنَت الهداية في اتباع الشرع ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات .

ثم قال: وبالجملة فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه وما يتقرب إليه به من فعل وترك إلا عن طريق الوحي، فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل وما جاؤوا به ولو في مسألة واحدة فلا شك في زندقته والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى اهـ [**أضواء البيان ٣/ ٣٢٢ وما بعدها**] .

وقد تفطن أهل العلم لخطورة مثل هذه الدعوى، وحذروا منها أشد التحذير، حتى حكموا بِرَدِّ شهادة من يعتمد على الإلهامات .

قال السرخسي في المبسوط: **وكذلك من يعتقد أن الإلهام حجة موجبة للعلم لا تُقْبَلُ شهادتُه لأن اعتقاده ذلك يُمَكِّنُ تهمة الكذب فربما أقدم على أداء الشهادة بهذا الطريق اهـ. [المبسوط / ١٦ ص: ١٣٣]**

وقال الكاساني في بدائع الصنائع: **وكذا لا عدالة لأهل الإلهام لأنهم يحكمون بالإلهام فيشهدون لمن يقع في قلوبهم أنه صادق في دعواه، ومعلوم أن ذلك لا يخلو عن الكذب اهـ [** بدائع **الصنائع / ٦ / ٢٦٩]** .

وقال صاحب البحر الرائق: وفي التقرير: **ويلحق بهم صاحب الإلهام فلا تقبل شهادته اهـ [البحر / ٧ / ٩٣]** .

وقد عرف الصوفية الموفقون خطر الاعتماد على الإلهام فحذروا من ذلك إلا إذا وافق السنة، روى الخطيب البغدادي عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه كان يقول: **ليس لمن أُلْهِمَ شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه من الأثر فإذا سمعه من الأثر عمل به، وحمد الله حيث وافق ما في قلبه . [تاريخ بغداد / ١٠ / ٢٤٨]**

المسألة الثانية لا يصح الاعتماد على الرؤيا الصالحة:

وكذلك الرؤيا الصالحة لا تفيد علماً، لأنها وإن كانت من الله تعالى، فإن التمييز بينها وبين أحلام الشيطان وأضغاث الأحلام ليس مقطوعاً به، **ويستثنى من ذلك ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا .**

تعبير الرؤيا أمر ظني ولو صدر من صالحي العلماء:

ثم إنَّ الرؤيا وإن كانت صالحة فإن تأويلها ظني وإن كان من قبل عالم صالح .

والدليل على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقص عليه رؤيا، فقال أبو بكر ﷺ يا رسول الله بأبي أنت والله لَتَدَعَنِّي فَأَعْبُرَهَا فقال النبي ﷺ اعبرها، فعبرها ثم قال للنبي ﷺ : فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً، قال فوالله لتحدثني بالذي أخطأتُ قال: لا تقسم .

[البخاري/ ٦٦٣٩ ومسلم / ٢٢٦٩]

فهذا أبو بكر ﷺ يصيب بعضاً ويخطئ بعضاً مع أنه كان من أعبر الناس للرؤيا بعد رسول الله ﷺ وقد استدل العلماء بهذا الحديث على أن العابر قد يخطئ وقد يصيب كما ذكر ابن حجر في فتح الباري [فتح الباري ١٢ /٤٣٤ و ٤٣٨] .

قال أهل العلم: ولو رأى الإنسان رسول الله ﷺ على صورته الحقيقية، فإن هذا لا يفيد علماً ولا يؤخذ منه معرفةٌ ولا حكمٌ من الأحكام فرضٌ ولا ندبٌ ولا غيرهما مع أنه قد صح عنه ﷺ أنه قال: ((**وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**)) .

[البخاري/ ٥٨٤٤ مسلم / ٢٢٦٦]

قال النووي رحمه الله تعالى في المجموع:

فرع: لو كانت ليلة الثلاثين من شعبان، ولم ير الناس الهلال فرأى إنسان النبي ﷺ في المنام فقال له: الليلةَ أولُ رمضان، لم يصح الصوم بهذا المنام لا لصاحب المنام ولا لغيره .

ونقل القاضي عياض الإجماع عليه، قال: وقد قررته بدلائله في أول شرح صحيح مسلم [المجموع ٦/ ٢٨٤] .

وقال الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: **ويقرب من الإلهام رؤيا المنام فمن رأى النبي ﷺ في نومه يأمره بشيء أو ينهاه عنه لا يجوز اعتماده مع أن من رآه فقد رآه حقاً، لعدم ضبط الرائي** .[لب الأصول / ١١٨] .

التحذير من المضلين:

وقد ظهر فيما مضى أناس ضالون، ادعوا أن لهم طريقاً للعلم غير طريق التعلم، صعب عليهم تحصيل العلم، ورغبوا في التصدر في الدين مع جهلهم فيه، وزعموا أن العلم يأتيهم منحةً من الله تعالى يُفيضه على قلوبهم، ويقول قائلهم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وقد سلك هؤلاء طريق الانشغال بالذكر والعبادة وادعوا أحوالاً صالحة ومقامات عالية، فتلاعب بهم الشيطان لبعدهم عن التفقه في الدين، فَضَلُّوا وأضلوا من اتبعهم .

ومن أبواب الضلال أيضاً أنَّ بعض الناس يزعمون أنهم يأخذون الأحكام الشرعية والتوجيهات المختلفة من رسول الله ﷺ مباشرة ويسألونه عما يريدون لأنهم يجتمعون به يقظة، وإذا أُنْكِرَ عليهم ذلك الأمرُ الباطل حولوا الحديث إلى الجدل، وصاروا يتكلمون عن قدرة الله وأن الله على كل شيء قدير، ولكن القضية أننا لا نتكلم عن قدرة الله تعالى، ولا عن الممكنات، وليس كل ممكنٍ يكون واقعاً .

وأنا هنا لا أبحث في قضية قدرة الله سبحانه ولا في شأن الإمكان العقلي، ولا في الكرامات وخوارق العادات .

لكني أُحَذِّرُ من سبل الضلالة التي يُلَبِّسُ بها المضلون على الناس أمور دينهم، ويدعون أنَّ لهم طرقاً يتلقون فيها عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ غير ما ينقله العلماء بأسانيدهم المتصلة بنقل الثقات؛ فليحذر المسلم الحريص على دينه فهو أغلى ما يجب الحرص عليه .

وليحذر من مثل هؤلاء المدعين فهم من أئمة الضلال الذين حذر منهم رسول الله ﷺ ؛ فعن ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : **إِنّمَا أَخَافُ عَلَى أُمّتِي الأَئِمّةَ المُضِلّينَ** .

[رواه الترمذي / ٢٣٣٠ وقال: حديثٌ حسن صَحِيحٌ]

ومن أراد الله تعالى به الخير نظر إلى حال الصحابة والتابعين الذين شهد لهم النبي ﷺ بأنهم خير الأمة، وقارن الأمور بما كانوا عليه مقتبساً الخير مما كانوا وتربوا عليه، وانظر هل

وُجِدَ واحدٌ فقط في عصر الصحابة ادعى أنه رأى النبي ﷺ يقظة بعد وفاته ﷺ ولو مرة واحدة؟ وهل ادعى أحد منهم أنه سأله بعد وفاته ﷺ عن أمر من الأمور، وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يتحسرون على أنهم لم يسألوه ﷺ عن أمور مهمة لم يتفطنوا لها قبل وفاته؛ فقد خطب عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ يعلم الناس دينهم فقال: **أَمّا بَعْدُ، أَلاَ وَإِنّ الْخَمْرَ نَزَلَ تَحْرِيمُهَا، يَوْمَ نَزَلَ، وَهِيَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنَ الْحِنْطَةِ، وَالشّعِيرِ، وَالتّمْرِ، وَالزّبِيبِ، وَالْعَسَلِ. وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ.**

وَثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ وَدِدْتُ، أَيّهَا النّاسُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ عَهِدَ إِلَيْنَا فِيهَا: الْجَدّ، وَالْكَلاَلَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرّبَا . [البخاري / ٥٢٦٦ومسلم / ٣٠٣٢] .

الملحق رقم (٣) الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى

والتحذير من كهانات منتشرة باسم الاستخارة

من عقيدتنا التي جاء بها كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أن الله وحده يعلم الغيب ولا يعلم الغيب سواه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ [النمل/٦٥] .

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ . [لقمان/٣٤]

وقالت عائشة رضي الله عنها: « **وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا**) » [البخاري/ ٤٥٧٤] .

ويتوهم بعض الناس البعيدين عن بصائر القرآن والسنة أنَّ الجن يعلمون الغيب .

وهذه العقيدة باطلة تخالف الأدلة السابقة، وتخالف قوله تعالى في شأن سليمان ﷺ: ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ [سبأ/ ١٢-١٤] .

من أمراض عصرنا محاولة استطلاع غيب المستقبل :

ومن أمراض عصرنا أن كثيراً من أبناء مجتمعاتنا يحاولون أن يستطلعوا المستقبل عن طريق الكهانة بأشكال مختلفة :

منها: محاولة معرفة وجود توافق أو تنافر بين الخاطب والمخطوبة لو حصل بينهما زواج .

ومنها: محاولة معرفة وجود التوفيق أو عدمه في مشروع تجارة أو صناعة أو شركة أو غير ذلك .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبيٍّ لسوء العلاقة بين زوجين .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبي لمرضٍ أو مشكلةٍ أو معرفةِ مكان الضالَّة من متاع أو حيوان، أو مكان المسروق، أو معرفة مَنِ السارق ونحو ذلك .

ومنها: محاولة معرفة سبب غيبي لتأخر زواج البنات اللاتي تأخر زواجهن [٦٣] .

انتشار الكهانة باسم الاستخارة :

وقد وجد في كل بلدة من بلاد المسلمين أناسٌ من الرجال والنساء، يزعمون أنهم يستطلعون الغيب، يأتيهم النساء والرجال يطلبون منهم معرفة الأمور الغيبية السابقة وغيرها فيجيبونهم بكهاناتهم المختلفة، ويُسَمُّون الوسائل التي يلبسون فيها على الناس استخارة .

وقد وجدت وانتشرت انحرافات في تصور معنى الاستخارة:

منها: فتح المصحف عند الاستخارة وزعمه أنه بنظره فيه يعرف ما يرجوه السائل من أمور غيبية .

ومنها: استعمال حبات السبحة عند الاستخارة .

ومنها: استعمال ما يسمونه تبييت الأثر، حيث يأخذ الكاهن ثوباً أو نحوه من آثار إنسان فَيُبَيِّتُهُ عنده، ويزعم في الغد أنه عرف الأمر الغيبيَّ الذي يريدونه .

ومنها: ادعاؤه معرفة الغيب المطلوب عن طرق رؤيا منامية بعد صلاة ركعتي الاستخارة والدعاء، ويرى كثير من الإخوة أنَّ هذا هو الاستخارة الشرعية، وقد تقدم معنا في الإضاءات أن ما يتعلق بغير الأنبياء من الرؤيا لا يعتمد عليه لا في أمر ديني ولا دنيوي .

ما يحدث من الإنسان في المستقبل غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده؛ فكل من أخبر بأنه سيكون كذا أو كذا من أمور غيبية، اعتماداً على ما تقدم، أو على نحوه من الكهانات فكلامه رجم بالغيب، والمتكلم كاهن .

وكذلك من أخبرك بمكان الضالة أو بسبب المشكلة أو بسبب المرض من أمور غيبية اعتماداً على ما تقدم فكلامه رجم بالغيب، والمتكلم بذلك عَرَّافٌ .

وكذلك من يقول نتيجةً للاستخارة: إنه سيكون كذا أو كذا من أمور غيبية فكلامه رجم بالغيب وكهانة .

---

(٦٣) كل هذه المحاولات باطلة لا تُنتج إلا ارتكاب المعصية بهذه المحاولات لاستطلاع الغيب، واللائق بأَتْباع النبي ﷺ المستضيئين بأنوار العلم أن يكون اهتمامهم بدراسة الأسباب والنتائج، واستشارة أهل الأمانة والخبرة فيما نستشيرهم فيه، وبعد دراستنا للأمر من جوانبه المختلفة، نلتجئ إلى الله تعالى أن يختار لنا الخير وييسره لنا .

ومن يعتمد عليه يخالف قوله تعالى:﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ **[الإسراء/٣٦]** .

ومن يأتي هؤلاء الكهان والعرافين يستطلع الغيب فإنه مرتكب لمعصية كبيرة، ومشابه في عمله هذا للكفار الذين حرموا أنفسهم من ضياء العلم، قال رسول الله ﷺ « **مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** » **[مسلم / ٢٢٣٠]** .

وقال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ » **[الإمام أحمد / ٩٥٣٢]** .

قال الإمام النووي في شرح مسلم عند كلامه على عبارة: « **وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ** » في حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه **[مسلم/ ٥٣٧]** :

قال العلماء: إنما نهى عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة فيخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك لأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان وهو حرام بإجماع المسلمين .

وقال الخطابي رحمه اللَّه تعالى: والفرق بين العراف والكاهن أن الكاهن إنما يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار، والعراف يتعاطى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما .

وقال الخطابي: كان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور:

فمنهم من يزعم أن له رَئِياً من الجن يُلْقي إليه الأخبار.

ومنهم من يدعي استدراك ذلك بفهم أعطيه.

ومنهم من يُسَمَّى عرافاً وهو الذي يزعم معرفة الأمور بمقدمات أسباب استدل بها كمعرفة من سرق الشيء الفلاني .

قال: والحديث يشتمل على النهي عن إتيان هؤلاء كلهم والرجوع إلى قولهم وتصديقهم فيما يدعونه، هذا كلام الخطابي وهو نفيس انتهى كلام النووي .

حقيقة الاستخارة

المراد بالاستخارة أن يطلب العبد خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما، كما قال ابن حجر في فتح الباري ١١/١٥٥

وقال العلامة فضل اللَّه الجيلاني في شرحه للأدب المفرد: الاستخارة ليست عبارة عن استعلام الغيب بل هي عبارة عن استدعاء الخير بالتضرع إلى علام الغيوب ولا يعتقد صاحبها كونها طريقة إلى علم الغيب، ثم نقل عن طبقات الشافعية الكبرى قول الشيخ كمال الدين الزملكاني: إذا صلى الإنسان ركعتي الاستخارة فليفعل بعدها ما بدا له سواء انشرحت نفسه له أم لا فإن فيه الخير وإن لم تنشرح له نفسه اهـ .

[فضل اللَّه الصمد ١٦٨/٢ . ٦٩ وطبقات الشافعية الكبرى ٢٠٦/٩] .

وأما ما قاله النووي في الأذكار: يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح به صدره، ويُستدَلُّ له بحديث أنس عند ابن السني: « **يا أنَسُ، إذَا هَمَمْتَ بِأمْرٍ فاسْتَخِرْ رَبَّكَ فيهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْظُرْ إلى الَّذي سَبَقَ إلى قَلْبِكَ، فإنَّ الخَيْرَ فِيهِ** » فقد قال ابن حجر في الفتح: هذا لو ثبت لكان هو المعتمد، لكنَّ سنده واهٍ جداً والمعتمد أنه لا يفعل ما ينشرح به صدره مما كان له فيه هوىً قويٌّ قبل الاستخارة. اهـ كلام ابن حجر **[١٥٨.١٥٧/١١]** .

أقول: والحديث الذي اعتمد عليه النووي وقال عنه: إسناده غريب فيه من لا أعرفهم اهـ، قد تعقب الحافظ العراقيُّ رحمه اللَّه في شرحه للترمذي النوويَّ فقال: هم معروفون لكن فيهم راو معروف بالضعف الشديد وهو إبراهيم بن البراء، ثم نقل عن أهل العلم أنه يحدث بالأباطيل عن الثقات وأنه لا يحل ذكره إلا على سبيل القدح فيه، قال العراقي: فعلى هذا فالحديث ساقط، وقد أفتى ابن عبد السلام بخلافه. انظر شرح الأذكار ٣٥٧/٣ .

ومن الغريب العجيب أن الناس قد تغيرت مفاهيمهم عن المفهوم الشرعي الصحيح للاستخارة الذي هو الطلب من اللَّه تعالى أن يختار للعبد ما فيه الخير وصار هدفهم أن يستطلعوا الغيب وأن يعرفوا ما فيه .

وقد صار هذا المفهوم الباطل سبباً لانتشار الكهانة باسم الاستخارة، وصار يقال عن الكاهن: الشيخ فلان وعن الكاهنة: الشيخة فلانة، ويغطي هؤلاء كهانتهم بتلاوة آيات من القرآن .

لذلك يتأكد على المسلم أن يعرف حقيقة الاستخارة بالصفة التي تعلمها الصحابة ﭫ من رسول الله ﷺ .

عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول:

« **إذَا هَمَّ أحَدُكُمْ بالأمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: اللَّهمَّ إنِّي أسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأسألُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فإنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أعْلَمُ، وأنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هَذَا الأمْرَ خَيْرٌ لي فِي دِينِي وَمَعاشِي وَعاقِبَةِ أمْرِي،** أو قال: **عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ، فاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لي، ثُم بارِكْ لي فِيهِ، وَإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هَذَا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِينِي وَمعاشِي وَعاقِبَةِ أمْرِي،** أو قال: **عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ، فاصْرِفْهُ عَنِّي، واصْرِفْنِيْ عنه وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ،** قال: **ويُسمِّي حاجَتَهُ** » **[البخاري / ١١٠٩]** .

هذه هي الاستخارة التي صحت عن رسول الله ﷺ فإذا همَّ المسلم بأمر وصلى ركعتين ودعا بهذا الدعاء فقد تمت الاستخارة .

فالاستخارة لا تحتاج إلى تَبْيِيتٍ، وليس لها جواب مرتبط بالغيب، وإذا رأى المستخير رؤيا بعد الاستخارة فقد تكون رؤيا صالحة، ولا تعطي الرؤيا الصالحة علماً، كما تقدم في الملحق رقم (٢) وقد تكون حلماً شيطانياً [٦٤] .

---

(٦٤) من حوادث الكهانة التي فيها عبرة أن رجلاً وافق على تزويج ابنته من خاطبٍ دون أن يبحث أو يسأل عنه؛ لأنه قد طلب من شيخه أن يبيت له استخارةً فكانت نتيجة الاستخارة في اليوم الثاني بزعمهم أن الخاطب جيد ومناسب، ولكن زوج ابنته الثانية تلطف مع والد زوجته وذهبا للسؤال عن الخاطب فتبين بعد البحث عنه أنه تارك للصلاة ومدمن على شرب الخمر .

ومن الحوادث المفيدة أن رجلاً ممن أحترمهم وأُجِلُّهم وأَنْظُرُ إليهم في ظني بمنظار الصلاح، وليس من عادته أن يعمل استخارات للناس، وقد بلغني عنه أن بعض جيرانه طلبوا منه استخارة من أجل خاطب خطب ابنتهم فصلى ركعتين ودعا بدعاء الاستخارة ونام، وفي اليوم الثاني نهاهم عن تزويج هذا الخاطب، فذهبت إليه لأستبين الأمر فأَقَرَّ بصحة ما بلغني، فسألته عن سبب نهيهم عن تزويج هذا الخاطب، فقال إنه رأى في الرؤيا كلباً أسود .

فسألته أيوسوس إليه الشيطان وهو يصلي فأجاب: نعم، فقلت له: إذا كان الشيطان يدنو منك ويوسوس وأنت في الصلاة ألا يستطيع أن يريك في الرؤيا كلباً أسود؟ فقال نعم وعرف خطأه وتاب إلى الله تعالى .

الملحق رقم (٤) في بطلان الإلحاد

ودعوى وجود الكون بالمصادفةِ ودعوى طبيعة دون خالق ومنظم

بطلان الإلحاد :

كثر في عصرنا استعمال كلمة (**الإلحاد**) بمعنى إنكار الألوهية مطلقاً، ولا يقر أصحاب هذه الدعوى بإله ولا خالق ولا دين .

وراجت هذه العقيدة قبل عشرات السنين بدوافع متعددة، وكنا نسمع في صغرنا من يتكلم بها، ويدعو إليها .

أما الآن فقد تحطم هذا الصنم، المكَوَّنُ من ظلمات الجهالة والهوى، بأنوار العلم والمعرفة، وهذا شأنُ الظلمات عندما يَحُلُّ النور، وشأنُ الباطل عندما يجيء الحق، وإذا وُجِدَ اليوم من يتكلم بمثل تلك الجهالة اصطدم بسخرية الساخرين، وإنكار العقلاء والمفكرين .

الإلحاد لا دليل عليه :

لا يمكن أن يكون عند من ينكر وجود الإله دليلٌ مطلقاً، وغاية ما يمكن أن يزعموه دليلاً أنهم لم يروا الله تعالى ولم يكتشفوه، وهذا الاستدلال باطل يتنافى مع أسس العلم ومبادئه .

إذْ عَدَمُ الرؤيةِ أو الاكتشاف لشيء وعدم الإحساسِ به لا يكون دليلاً على عدم وجوده، وكم من الأشياء والأنظمة التي ندركها اليوم إدراكاً بديهياً لم يتصورها الناس من قبل ولم يدركوها .

ربط أنظمة المخلوقات بالمصادفة أو الطبيعة طُفولةٌ غَبِيَّةٌ :

وإذا ما سئل المتكلم بضلالة الإلحاد، كيف وُجِدَ هذا الكون المنظم بأعلى ما يتصور الإنسان من الحكمة والإتقان؟ أجاب بما لا يقتنع به عقلُه ولا عقلُ غيره، ولا يطمئن إليه قلبُه ولا قلبُ غيره، ورَبَطَ ذلك الوجود المتقَن بالمصادفة أو الطبيعة .

وهذا لا يمكن أن يقبله عقل .

أما المصادفة [٦٥] فيقال لمن يدعيها يمكن للإنسان أن يصدق حصول قضية بالمصادفة إذا كانت جزئية لا علاقة لها بقضية أخرى، كما إذا أمسك طفلٌ لا يعرف القراءة والكتابة قلماً وصار يلعب به وإذا بنا نرى مِنْ لَعِبِهِ قد تصورت صورةُ حرف من الحروف، وحينئذ يمكن أن نصدِّق أنَّ هذا الحرف حدث مصادفة دون قصدٍ ودون علم من قِبَلِ الطفل، وإذا أَخْبَرْنا بذلك يمكن أن يُصَدَّق كلامُنا .

أما إذا رأينا على الورقة بيتين من الشعر تظهر فيهما آثار علوم الصرف والنحو واللغة والبيان والمعاني والبديع والعروض والقوافي فلا يمكن للعاقل أن يصدق بأنهما مصادفة نشأت من لعب ذلك الطفل الذي لم يتعلم القراءة والكتابة .

إن العاقل إذا نظر إلى أي شيء في نفسه أو فيما حوله يرى من النظام والحكمة والإتقان ما يتعذر إحصاؤه، وخصوصاً إن كان من المطلعين على بعض ما يتميز به هذا العصر، من عمق معرفة ما تيسر لخصائص وأنظمة المخلوقات التي حولنا .

من نظر إلى عينيه وما فيهما من طبقات وقزحية، وبؤبؤ يتسع ويضيق حسب مصلحة الرؤية، وضغط مناسب، وغُدَدٍ، وأعصاب مختلفة الوظائف، وعضلاتٍ اختيارية الحركة، وأخرى غير اختيارية، وتصويرٍ سريع متكرر، وأعصاب دقيقة تنقل الصور إلى مستودعها في الدماغ، هل يَقْبَلُ عقلُ الإنسان بعد هذا النظرِ القولَ بالمصادفةِ في ذلك؟ وانظر بقلبك وعقلك بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن** ﴾ .

ولينظر بعد ذلك إلى الحيوان المنوي الذي كان جزءاً من تكوين كلٍّ مِنَّا في القرار المكين، لينظر إلى هذا الحيوان المنوي الذي خرج من الرجل مع آلاف الآلاف من أمثاله في دفعة واحدة وهو من الكائنات الحية الدقيقة التي لو جمع منها مئات لَمَرَّتْ مرةً واحدةً في سم الخياط.

لينظر إلى هذا الحيوان المنوي الحي وما فيه من أسرار الحياة، وما يحمله من المورثات الكثيرة، أين منه ما يؤثر على لون العيون والبشرة والشعر، أين منه ما يؤثر على حجم العظام وخصائصها واستعداداتها، أين منه ما يؤثر على الدم وعروقه وخصائصه واستعداداته، أين منه ما

(٦٥) كثر استعمال كلمة: (**صُدْفَة**) في عصرنا عند من ينكر وجود الخالق سبحانه من كَفَرَةِ زماننا، وهذه الكلمة ليس لها استعمال في اللغة العربية، ووجدت أقرب الكلمات المستعملة إلى المعنى الذي يريدونه (**مصادفة**) .

يؤثر على طبائع الإنسان العقلية والنفسية، أين منه ما يؤثر على استرسال الشعر وجعودته وكثرته وقلته، أين منه ما يؤثر على خصائص السمع والبصر وقابليتهما، أين منه ما يؤثر على حجم الوجه طولاً وعرضاً وصغر الأنف والأذنين وكبرهما، أين من هذا الحيوان المنوي ما يؤثر على شكل الحاجبين وسرعة الشيب وبطئه وبقاء الشعر وتساقطه، أيكون هذا مصادفة؟ واقرأ بعد هذا قول الله تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق/٥] وقولَه عز وجلَّ ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾ [الواقعة/٥٩] .

وهكذا سائر المخلوقات التي حولك، كلها أنظمة ومقادير دقيقة مرتبطة بالمصلحة والحكمة .

بعد هذه التذكرة أقول: كيف يقبل عاقل في عصر العلم والمعرفة، أن يضع نفسه بعيداً عن الكرامة الإنسانية، وعن خاصة الإنسان الأولى وهي العقل والتفكير، ويتكلم بما لا يليق بالعقلاء ويقول عن هذا الكون: وجد مصادفة، مع معرفة الإنسان أن هذه الأرض بما فيها من أسرارٍ وأنواعٍ للكائنات والنباتات الحية، البرية والبحرية، وما يتميز به كلٌ منها ما هي إلا جزء صغير من ملك الله سبحانه وتعالى .

ما هي الطبيعة :

ما الذي يريده الضائعون بكلمة الطبيعة عندما يسندون وجود الخلق إليها؟ .

لا معنى للطبيعة إلا النظام الذي يسير عليه كل موجود في هذا الكون .

فالأرض لها طبيعة، هي الأنظمة التي تسير عليها، والدجاج له طبيعة، هي الأنظمة التي تَكَوَّنَ عليها وتسير عليها حياته، وهكذا النحل وسائر الكائنات الحية المختلفة، طبائعها هي الأنظمة التي يرتبط بها تكوينها وحياتها، وكذلك النباتات والمواد الكيميائية المفردة والمركبة كلٌّ منها له طبيعة هي خصائصها وأنظمتها التي تتميز بها .

فطبيعة الشيء نظامه وخصائصه، ونظام الشيء لم يوجِدْ ذلك الشيءَ، فنظام الطائرة لم يوجد هذه الطائرة، ونظام الأرض لم يوجد هذه الأرض، ونظام جسم الإنسان لم يوجد هذا الإنسان، بل إن هذه الأنظمة هي الدليل على الإله العظيم، الذي خلق هذه الأشياء ووضع لكلٍ منها نظامه وطبيعته .

الملحق رقم (٥)

تنوير القلوب وإحياؤها وسقايتها بذكر الله تعالى من الإيمان

إن الذكر الحقيقي الذي تشتغل فيه القلوب مع الألسنة يَتْرُكُ في القلب آثارَه الطيبة التي يَشْعُرُ الذاكرُ بحلاوتِها ويشعر أن قلبه قد تَغَذَّى بها كما يجدُ الآكلُ والشاربُ لذةَ الطعامِ والشرابِ، ويشعر بآثار ذلك في جسده .

والقلوب تَقْوى وتَضْعُفُ وتصح وتمرض شأنها كشأن الأجساد فلا بد من تَغْذِيَتِها وسِقَايَتِها، ولا بد من علاج أمراضها، وذكرُ اللَّه تعالى أعظمُ غذاءٍ لها، وأنفعُ دواءٍ .

ومن يذكر الله تعالى بالأذكار التي علمها النبيُّ ﷺ أصحابَه ﷺ يُفْتح له بابٌ عظيمٌ من أبواب تحقق القلب بأنوار الإيمان والتحقق بشعبه القلبية .

ويكون ذلك عندما يتدبر الذاكر تلك الأذكار بقلبٍ حاضرٍ مفتوحٍ متذللٍ مُتَبَتِّلٍ إلى الله سبحانه وتعالى .

ومما يتأكد الانتباه له في هذا الأمر أن نحذر من غفلة القلب عند تلاوة القرآن وعندما نناجي ربنا سبحانه بالأذكار المسنونة، وأن نحرص على تدبرها وعلى مراقبة الله تعالى الذي نخاطبه ونناجيه بكلماتها، وقد كثر فينا مرض الغفلة عن هذه الآيات والأذكار حتى صارت كأنها عادة لا أثر لها في قلوبنا .

وهذه الغفلة تسبب خسارة كبيرة، ومن الأمثلة على ذلك أنَّ أحدنا عندما يقرأ أعظم سورة من القرآن – الفاتحة – [٦٦] قد ينتهي من تلاوة هذه الفاتحة وليس في قلبه حمدٌ ولا ثناءٌ ولا تمجيدٌ ولا سؤالٌ .

---

(٦٦) وهي السورة التي إذا قال العبد المؤمن فيها: **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** قال الله تعالى: **حَمِدَنِي عَبْدِي**، وإذا قال العبد: **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** قال الله تعالى: **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**، وإذا قال العبد: **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** قال الله تعالى: **مَجَّدَنِي عَبْدِي**، وإذا قال العبد: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** قال الله تعالى: **هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**، وإذا قال العبد: **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** قال الله تعالى: **هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، كما في صحيح مسلم / ٣٨** .

وكما أننا بحاجة إلى مغفرة الله تعالى لذنوبنا فإننا بحاجة أيضاً إلى أن نستغفر الله تعالى من إساءة الأدب معه في صلاتنا وعباداتنا .

وأحب هنا أن أُذَكِّرَ نفسي وإخواني ببعض الأنوار الإيمانية من سورة الفاتحة .

هذه السورة إذا أعطيناها جانباً من الحرص والاهتمام كان ذلك تزكية لنفوسنا وعمارة لقلوبنا وزيادة في إيماننا، وهي أنوار عظيمة وكثيرة .

فمن أنوار قول العبد: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ الشعور بأنَّ جميعَ الحمد الحقيقي لله تعالى وحده، وأنَّ الفضل كله منه، وينتج هذا الشعور من يقظة القلب لمعنى الاستغراق المفهوم من الألف واللام في كلمة ﴿ **الحَمْدُ** ﴾ وإنَّ هذه الأنوارَ من أعظم دوافع الشكر نتيجة .

وفي قول العبد: ﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أنوار الافتقار إلى الله تعالى وخشيته والأدب معه .

وفي قول العبد: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ دوافع رجائه ومحبته .

وفي قوله: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ دوافع الخوف من سوء الحساب والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة .

وفي قوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ عواملُ يقظة القلب إلى معاني قرب الله تعالى، وما تنتجه هذه اليقظة من الحياء من الله تعالى، وكذلك قطعُ علائق القلب عن غير الله تعالى وصدقُ التوجه إليه، مع اعتراف العبد مع إخوانه المؤمنين بالعبودية والخضوع لله وحده .

وأنوارُ دعاء العبد ربه والاستعانةِ به وحده في كلِّ شؤونه مع قطع علاقة القلب عن رجاء سواه، يجدها في قوله: ﴿ **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

و في قول العبد ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** ﴾ أنوارُ الافتقار إلى الله تعالى في طلب العبد تمامَ الهداية ودوامَها في كلِّ ما يرتبط بالعبد من الأقوال والأفعال والأحوال .

وفي قوله: ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ** ﴾ ربطُ قلب العبد بمحبة أهل الحق، بمحبة سيدنا محمد ﷺ ومن سبقه من النبيين عليهم الصلاة والسلام، ومن تبعه من الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ﷺ والتابعين لهم بإحسان ومن سار على نهجهم من الأئمة المجتهدين وأتباعهم إلى يوم الدين .

وهذا الربط للقلب بمحبة هؤلاء الكرام من أعظم عوامل الاستقامة على طريق الحق الذي هو صراط الله المستقيم .

وفي قول العبد: ﴿ **غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾ الاستعاذةُ بالله تعالى من سلوك طريق من انحرفوا عن الحق وساروا في طرق الباطل بالكبر وغلبة الأهواء مع معرفتهم للحق وأهله، ومن سلوك طريق من انحرفوا عن الحق بجهالاتهم، وبإهمالهم لأنفسهم بترك البحث عن طريق الحق الذي فيه مصالحُهم الحقيقية، وكذلك الحذر من اتباعهم وتقليدهم في أحوالهم وأعمالهم، مع الافتقار إلى الله تعالى في هذا التضرع .

وما تقدم إشارات لطيفة قليلة لبعض أنوار هذه السورة العظيمة التي هي أعظم سور القرآن الكريم، وفيها ما لا يُحصَى من أنوار القلوب التي عَمَرَتْ قلوب الذين شرفهم الله تعالى بصحبة نبيه ﷺ وأكرمهم بأكمل التربية التي حَوَّل بها ﷺ خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية في الكمالات والفضائل حتى كانوا خير هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، ولم تكن تلك الكمالات لتوجد فيهم لولا عمارةُ قلوبهم وصلاحها بسقايتها في الصلاة وغيرها بأنوار القرآن الكريم، وأنوار الأذكار والأدعية التي رباهم بها أعظم المربين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، مع جوانب التربية الأخرى .

وكذلك كلُّ أذكار وأدعية القرآن الكريم، والأذكار والأدعية التي علمنا إياها سيدنا محمد ﷺ بكلماتها وجُمَلِهَا وترتيبها بل وبحروفها، كلُّها مليئة بأنوار القلوب التي يُداوَى ويُغَذَّى بها قلب من سار في طريق العلم والعمل، وعمل بقوله ﷺ ((**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ**)) **[مسلم ٢٦٦٤]** .

ومما ينفعنا في هذا أن تنتبه قلوبنا في مناجاتنا لربنا عندما نصلي أو نقرأ القرآن أو نذكر الله تعالى بالأذكار المسنونة إلى أنَّ الله تعالى قريب منَّا ينظر إلى قلوبنا، فهل يليق بالمؤمن عندما يناجي ربه أن يلتفت قلبه عن الله عز وجلّ؟ .

إن هذا الالتفات يشبه حال أحدنا إذا كان يخاطب من يجب احترامُه والأدبُ معه فجعل عند مخاطبته إياه يلتفت يميناً ويساراً .

إنَّ أحدنا يقف في الصلاة فيلتفت، وقد سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال: ((**هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ**)) [البخاري / ٧١٨] .

وإذا كان التفات الوجه عن القبلة قبيحاً فإن التفات القلب عن الله تعالى عند مناجاته أقبح، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالمغفرة لما نحن فيه من ذنوبنا وسوء أحوالنا، وأن يكرمنا بالعافية، وأن يعيننا على حسن عبادته (٦٧) .

ومما يتأكد الاهتمام به عند الصلاة والتلاوة والذكر أن تتفتح القلوب لأنوار أسماء الله الحسنى مع التحقق بالذل والانكسار إلى الله تعالى؛ فإن أسماءه تعالى لها أنوار وآثار عظيمة في القلوب .

فإذا قرأ العبد قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات/ ١]

وقوله عز وجل ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ/ ٣]

﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك/ ١٣- ١٤]

إذا قرأ هذه الآيات وأمثالها وقد تحققت فيه مع يقظة القلب معاني العبودية من الذل والانكسار والفرار والتبتل إلى الله تعالى فإنه تنْزل عليه السكينة ويزيد إيمانه ويجد في قلبه أنوار مراقبة الله تعالى والأدب معه، ويتزايد فيه الحياء من الله تعالى، وذلك بالتدبر لتلاوته أو استماعه آيات القرآن .

ومما ينفعنا الله تعالى به أن يجلس أحدنا وقد فَرَّغَ قلبه وهيأه بالذل والانكسار إلى الله تعالى ليسقيه بأنوار الذكر عملاً بهذه الوصية النبوية العظيمة .

---

(٦٧) أقول لنفسي وللقارئ الكريم: لنقرأ هذا الحديث، ولنفكر: لماذا يوجهه النبي ﷺ إلينا؟ وماذا نستفيد منه؟ وهو حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها [**الإمام أحمد / ١٨٩١٤ و ابن حبان/ ١٨٨٩**] .

ولو أنَّ أحدنا استيقظ قلبه عندما نصلي إلى أنَّنا بين يدي الله عز وجل، وأنه ينظر إلى قلوبنا لاستحيينا منه سبحانه وتحسنت صلاتنا، ولو زاد اهتمامنا بهذا الأمر العظيم مع استعانتنا بالله تعالى لأكرمَنا الله تعالى بنصيب من قرة العين في الصلاة .

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ « **مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ** » . **[البخاري / ٣١١٩ مسلم / ٢٦٩١]**

ومما فيه أنوار « **لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ** » التي تضع في القلب جوانبَ إيمانيةً عظيمةً، من أهمها صدقُ الاعتماد والتوكلِ على الله تعالى، وقطعُ الرجاء والخوف عما سواه، وعند ذلك ينْزل هذا النور في القلب عند النطق بهذه العبارة، ثم يتكرر مرة بعد مرة، ولا تكمل مائة مرة من هذا الذكر إلا وقد شحن قلبه وامتلأ بأنوار عظيمة يجد معها حلاوة الإيمان، التي تعين العبد على الصلاة والاستقامة واتخاذ المواقف العظيمة التي نقرؤها في حياة الصحابة ﷺ ومن تبعهم بإحسان، ومن سبقهم ممن قص الله تعالى لنا أخبارهم من الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، كمؤمن آل فرعون، والذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة يس، وغلام قصة أصحاب الأخدود وغيرهم .

ومما أذكر به نفسي ومن يطالع هذا الكتاب من الإخوة الانتباه إلى أنوار سيد الاستغفار الذي أرشدنا النبي ﷺ أن نناجي به ربنا القريب المجيب في الليل والنهار، ومن هذه الأنوار أننا إذا ناجينا الله تعالى به مع حضور القلب [٦٨] والذل والانكسار والافتقار إلى الله تعالى فإنَّ القلب يستضيء بأنوار عظيمة، منها يقظة القلب إلى قرب الله تعالى، وذلك من أنوار مناجاة العبد لربه بضمير الخطاب عشر مرات .

وكذلك أُذَكِّرُ نفسي وإخواني أن تستيقظ قلوبنا لأنوار الأذكار الواردة في السنة في عامَّة الأحوال، وعند النوم والاستيقاظ والخروج من البيت وغيرها، وما أكثر وأعظم أنوار الأذكار المسنونة وأنوارَ أسماء الله الحسنى، وما أعظم فعلها في القلوب الحاضرة المفتوحة المتَذَلِّلَةِ المتبتلة إلى الله تعالى عند الذكر والفرار إليه نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتدبرين لهذه الأذكار تُسقى بها قلوبُنا ويزداد بها إيماننا .

---

(٦٨) والتوجيه تكرار سيد الاستغفار في الليل والنهار وإلى يقظة القلب وحضوره نفهمه من قوله ﷺ ((**وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ، فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)) **[الإمام أحمد / ١٧١٥٢ البخاري / ٥٩٤٧]** .

الملحق رقم (٦) في نماذج من معجزات النبي ﷺ

معجزات النبي ﷺ أنواع مختلفة منها ما فيه إخبارٌ بالمغيبات:

ومن الأمثلة في هذا الباب حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» **[البخاري / ٢٩٥٢ومسلم/ ٢٩١٨]**

وحديث العباس رضي الله عنه عندما أُسِرَ في غزوة بدر وقال: يا رسول الله إني كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: **الله أعلمُ بإسْلامك، فإن يَكُنْ كَمَا تَقُول فالله يَجْزيكَ، فافْدِ نفسَك وابْنَيْ أخويكَ نوفلَ بن الحارثِ بنِ عبد المطَّلب و عقيلَ بنَ أبي طالب بنِ عبدِ المطلب، فقالَ: ما ذاكَ عِنْدِي يا رسولَ الله قالَ: فأينَ المالُ الذي دَفَنْتَ أنت و أمُّ الفضْل فقلتَ لها: إن أُصبت فهذا المال لبنيَّ الفضلِ و عبدِ الله و قُثَم**، فقال: والله يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري و غيرُ أم الفضل، ففدى العباس نفسه وابني أخويه وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) **[الأنفال/٧٠] [المستدرك/ ٥٤٠٩ وصححه وأقره الذهبي وابن حبان في السيرة/ ١٥٧]**

.

ومنها ما رواه البخاري عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: استقبل والله الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما معاويةَ رضي الله عنه بكتائبَ أمثالِ الجبال، فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية رضي الله عنه :أيْ عمرو، إن قَتَلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش، فقال اذهبا إلى هذا الرجل فاعْرِضَا عليه وقُوْلا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له .... فصَالَحَه .

فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة رضي الله عنه يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسنُ بنُ علي رضي الله عنهما إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: « **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** » **[البخاري / ٢٥٥٧]** .

وفي رواية عند الإمام أحمد عَنِ الحَسَنِ البصريِّ قالَ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرَةَ رضي الله عنه قالَ : « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَكَانَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَثِبُ عَلَى ظَهْرِهِ إِذَا سَجَدَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَفْعَلُ بِهَذَا شَيْئاً مَا رَأَيْنَاكَ تَفْعَلُهُ بِأَحَدٍ، قَالَ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ تَبَارَكَ**

وَتَعَالَى بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » فَقَالَ الحَسَنُ: فَوَاللَّهِ وَاللَّهِ بَعْدَ أَنْ وَلِيَ لَمْ يُهْرَقْ فِي خِلاَفَتِهِ مِلْءُ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ [حم/ ٢٠٤٦٦] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولُكن يداً** » قالت فكنَّ يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت فكانت أطولَنا يداً زينبُ لأنها كانت تعمل بيدها وَتَصَدَّقُ [البخاري / ١٣٥٤ومسلم /٢٤٥٢] .

وعن عدي بن حاتم ﵁ قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: « **يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ** » قلت لم أرها وقد أنبئت عليها قال: « **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ – قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ؟ – وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى .**

قُلْتُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ .

وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ، قَالَ عَدِيٌّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ .

قَالَ عَدِيٌّ فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ : يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ » [الإمام أحمد / ١٨٢٨٦والبخاري / ٣٤٠٠] .

ومن معجزاته ﷺ **الإسراء والمعراج** التي أكرمه الله تعالى به في أواخر إقامته ﷺ في مكة قبل الهجرة، حيث أسري به من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، ثم عُرِجَ به ﷺ إلى السماوات العُلى ثم إلى سدرة المنتهى، قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾ [الإسراء/ ١] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى *وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى *** _

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم/ ١-١٨] .

وقد ذَكَرَ النبي ﷺ الإسراء والمعراج في أحاديث كثيرة منها

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **لما كذبتني قريش حين أُسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحِجْرِ، فجَلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه** » . [البخاري/ ٣٦٧٣ ومسلم/ ١٧٠]

وقوله ﷺ : « .... **ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ ﷺ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ..... ثُمَّ ذَكَرَ بقيةَ السماوات وَمَنْ لقيهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والبيتَ المعمور وسدرةَ المنتهى، وأنَّ اللهَ تعالى فرض خمسين صلاةً في كل يومٍ وليلةٍ فسأل اللهَ التخفيفَ فاستجابَ اللهُ تعالى له وقال: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً** » [البخاري/ ٣٠٣٥ ومسلم / ١٦٤] .

ومن معجزاته ﷺ ما يتعلق بتكثير الطعام والشراب .

كحديث جابر رضي الله عنه أنه رأى برسول الله ﷺ خمصاً شديداً فانكفأ إلى امرأته فقال هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بُهَيْمَةٌ داجن، قال فذبحتُها وطَحَنَتِ الشَّعيرَ ففرغَتْ إلى فراغي، فقطعتها في برمتها ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، قال فجئته فسارَرْتُه فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بُهَيْمَةً لنا وطحنت صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت في نفر معك، فصاح رسول الله ﷺ وقال « **يا أهل الخندق، إنَّ جابراً قدْ صَنَعَ لَكُمْ سُؤْراً فَحَيَّهلاً بِكُمْ** » وقال رسول الله ﷺ : « **لا تُنْزِلُنَّ برمتكم ولا تَخبزُنَّ عجينتكم حتى أجيء** » وذكر أنَّ النبي ﷺ جاء وبارك في العجين وفي البرمة وقال: « **ادعي خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تُنْزِلوها** » وأن جابراً رضي الله عنه قال: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإنَّ برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو [البخاري/ ٣٨٧٦ ومسلم/ ٢٠٣٩ باختصار] .

وحديث أنس رضي الله عنه قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بإناء فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم، قال قتادة قلت لأنس كم كنتم ؟ قال ثلاثمائة أو زُهاء ثلاثمائة .

[البخاري / ٣٣٧٩]

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فَقَلَّ الماء فقال: « **اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ** » فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ فأدخل يده في الإناء ثم قال: « **حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ** » فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ [البخاري /٣٣٨٦] .

الملحق رقم (٧) حول قضية الأولياء وكراماتهم

كرامات الأولياء:

ذكرتُ في الركنِ الثالثِ **الإيمانِ بالرسل** معجزاتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكثيراً ما تُذْكَرُ في العادة كرامات الأولياء مع المعجزات، وقد علمتُ أنَّ جهالات وضلالات انتشرت تتعلق بقضية **الأولياء وكراماتهم** فرأيت من الضروري أن أذكر جوانب من ضياء العلم فيما يتعلق بهذه القضية .

وذلك في النقاط التالية:

١ – الكرامات موجودة:

مع علمي بانتشار أكاذيب وحكايات غير واقعة تنسب فيها كرامات لفلان أو فلان، ويوصف هؤلاء بأنهم من الأولياء ومن أحباب الله تعالى، مع علمي بذلك وبأضراره وكراهيتي له أقول: **كرامات الأولياء ممكنة وواقعة** وإذا كان كثير مما يتحدث به الناس منها غير صحيح، فكثير منها ثابت تحدث عنه النبي ﷺ في الأحاديث الثابتة الصحيحة؛ فلا يصح إنكارها .

ومن ذلك ما أكرم الله تعالى به غلام قصة أصحاب الأخدود الذي آمن بالله تعالى عن طريق الراهب ونَبَذَ ضلالات الساحر، فقد أكرمه الله عز وجل بأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، وكان يقول للمريض: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي اللهُ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، وذلك في قصة أصحاب الأخدود الطويلة [أخرجها الإمام أحمد في مسنده / ٢٣٩٧٦ ومسلم /٣٠٠٥] وقد تضمنت تلك القصة كراماتٍ كثيرةً لهذا الغلام .

وكذلك كرامة جريج الذي كان عابداً في صومعته وقد أُرسِلَتْ إليه امرأةٌ جميلة لتفتنه فلم يلتفت إليها .

فأتت راعياً قُرب صومعته فأمكنته من نفسها فحملت منه وولدت وقالت: هو من جريج، فأنطق الله تعالى الصبي وأخبر أن أباه فلان الراعي [٦٩] .

٢ – من هو الولي؟ :

الجواب نأخذه من صريح القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس / ٦٢ – ٦٣] .

---

(٦٩) عَنْ أَبِي ﷺ هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي؟، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَقَالَت: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَت امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ، إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ .

فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلاَنٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ .

قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا .

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا .

فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ: حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا .

قَالَ إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا **[البخاري / ٣٢٥٣ ومسلم / ٢٥٥٠]** .

فالولي له وصفان لا بد منهما، وهما الإيمان والتقوى، وكلما زاد الإيمان والتقوى كانت الولاية أكمل .

٣ - لا تلازم بين الولاية والكرامة (الأمر الخارق لقوانين الطبيعة) :

لا يلزم من وجود الولاية في شخص أن تظهر على يديه الكرامة والأمور الخارقات .

فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ، وليست الكرامة جزءاً من الإيمان، ولا جزءاً من التقوى؛ فمن البعد عن العلم ما كثر في عصرنا عندما يوصف إنسانٌ بالولاية، ويستدل على ذلك بما يُذْكَر عنه من الأمور الخارقة .

وقد كثر عند بعض الناس طول الحديث عن الكرامات، حتى صارت الغالبَ على كثير من أحاديثهم، مع بعدهم عن العلوم الشرعية، وكثيرٌ مما يتحدثون عنه عند التحقيق لا وجود له، وقد يذكرون أموراً يتوهمونها خارقة وليست كذلك .

لكنَّ الصالحين إذا جلسوا مع الناس يحدثونهم بما ينفعهم والغالب على أحاديثهم الاهتمام بما هم محتاجون إليه، بِهدي القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ وبالعلم الشرعي ولم يكونوا يشغلون الناس بالحكايات المرتبطة بخوارق العادات .

٤ - لا نجزم بولاية إنسان إلا عن طريق الوحي الإلهي :

عَلَّمَنَا الإسلام أن لا نتكلم إلا بعلم، وولايةُ الإنسان لله تعالى مرتبطةٌ بظاهره وباطنه، ونحن نَطَّلِعُ على الظاهر ونحكم به، أما الباطن فحكمه عند الله تعالى وحده، نستطيع أن نصف إنساناً بالمحافظة على الصلاة في المسجد ونجزم بذلك، لأننا نراه، ولا نستطيع أن نصف إنساناً بالإخلاص لله تعالى مع الجزم بذلك، لأننا لا نَطَّلِعُ على قلبه، ويمكن أن نظن الإخلاص فيه ظناً .

وبناءً على هذا فإنَّ من الخطأ أن نجزم في إنسان أنه وليٌ لله، أو أنه من أهل الجنة، أو أنه من أحباب الله إذا لم يرد في ذلك وحي من الله تعالى، ويسعنا أن نظن فيه أنه ولي، أو أنه من أهل الجنة، ونترك السرائر والعواقب لعلام الغيوب سبحانه وتعالى .

وهذا ما علمه النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم فعندما وصف سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم بالإيمان – والإيمانُ باطنٌ – أرشده ﷺ أن يصفه بالإسلام لأنه ظاهر، وذلك في حديث سعدٍ رضي الله عنه ((**أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطَاً وَسَعْدٌ جَالِسٌ فِيهِمْ قَالَ سَعْدٌ: فَتَرَكَ**

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ؟ فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِنا، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : أَوْ مُسْلِماً، قَالَ، فَسَكَتُّ قَلِيلاً، ثُمّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ، فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: أَوْ مُسْلِماً، قَالَ، فَسَكَتّ قَلِيلاً ثُمّ غَلَبَنِي مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ، فَوَالله إِنّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: أَوْ مُسْلِماً، إِنّي لأُعْطِي الرّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبّ إِلَيّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبّ فِي النّارِ عَلَى وَجْهِه)) [البخاري/ ٢٧ومسلم/ ١٥٠] .

قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: معناه النهي عن القطع بالإيمان، وأن لفظة الإسلام أولى به، فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله تعالى اهـ .

وكذلك عندما مات عثمان بن مظعون ﷺ قالت أم العلاء رضي الله عنها وهي من الأنصار المبايعات: ((رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَداً)) [البخاري / ١١٨٦] .

وعن أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ: ((أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ)) .
[البخاري/٢٥١٦ ومسلم /٣٠٠٠]

قال النووي : قوله: (**ولا أزكي على الله أحداً**) أي لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميرِه؛ لأن ذلك مُغَيَّبٌ عَنَّا، ولكن أحسب وأظن، لوجود الظاهر المقتضي لذلك اهـ .

٥ – بطلان توهم أن بعض الأولياء يتصرفون في شيء من هذا الكون :

إنَّ ما يتوهمه بعض الناس أن لله عباداً يتصرفون في الكون، وأنهم وصلوا إلى مرتبة من الولاية، يعلمون كل شيء ويقولون للشيء كن فيكون، عقيدةٌ باطلة خطيرة من أقبح الباطل، تنافي عقيدةَ الإيمان بالله تعالى وتنافي توحيدَه .

وهؤلاء الذين وصلوا بسبب جهلهم في أسس هذا الدين إلى هذا الضلال المبين يربطون هذا الباطل بالأولياء وبأهل الله، وربما انتسبوا إلى بعض أهل العلم والفضل والدعوة والإصلاح كالشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى أوغيره ولكنهم على غير منهجه، ومن

اطلع على ترجمة هذا الشيخ الفاضل في كُتُبِ الثقات رأى أشدَّ التناقض بين سيرته وما كان يدعو إليه من جهة وبين هذا الباطل الذي يتبرأ منه هذا الشيخُ وأمثالُه من ورثة النبي ﷺ من جهة أخرى، ويتبرأ منه جميعُ المؤمنين .

ولولا أني أرى انتشاراً لمثل هذا الغلوِّ الخطير على الإيمان لما كان من الحكمة أن أبين بطلانه، لئلا أشغل الإخوة القارئين بما لا حاجة إليه، ولكن هذا الكلام وهذه الأفكار الخطيرة موجودة ومنتشرة، فمن الضروري التحذير منها .

٦ - لا يصح اعتبار المجنون أو المعتوه من الأولياء :

شاع بين كثير من الناس أن ينظروا إلى بعض المجانين والمعتوهين بأنهم أولياء، بل يتخذونهم مرشدين لهم، يطيعونهم ويخشون من مخالفتهم، ويستشيرونهم في الأمور المهمة المتعلقة بالجانب الديني والدنيوي، وهذا نهج غير صحيح، فالمجنون والمعتوه كلٌّ منهما غيرُ مكلف، ولا يوصف بطاعة ولا عصيان، فكيف يوصف المجنون بالولاية وهو غير مكلف .

لا حرج عليك أن ترحم هؤلاء وأن تكرمهم، بل ينبغي أن يرى أحدنا أنهم خير منه، لأنهم لا ذنوب لهم بسبب أنهم غير مكلفين، فهو عنده ذنوب وسيئات، وهم طاهرون منها؛ لأنهم غير مكلفين .

وقد أدرك الألوسي في تفسيره **روحِ المعاني** بطلانَ نظرة هؤلاء إلى المجانين فقال محذراً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **إنْ أولياؤُه إلا المتقون** ﴾ : **وغالب الجهلة اليوم على أن الولي هو المجنون ويعبرون عنه بالمجذوب، صدقوا ولكن عن الهدى، وكلما أطبق جنونه وكثر هذيانه واستقذرت النفوس السليمة أحواله كانت ولايته أكمل وتصرفه في ملك الله تعالى أتم** اهـ .

[روح المعاني ج: ٩ ص: ٢٠٢]

٧ - أعظم الكرامات الاستقامة على هدي النبي ﷺ:

أعظم الكرامات في هذه الحياةِ التحققُ بالإيمان والتقوى والاستقامةُ على هدي النبي ﷺ والتمسك بسنته، وهذا هو الذي يحقق للعبد العبوديةَ لله تعالى حتى يعيش عبداً صالحاً طيباً يرجو أن يلحقه الله تعالى بالصالحين .

وهذا هو الشغل الشاغل لقلوب الصالحين؛ فَعَنْ شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ أنه قال لأُمّ سلمة رضي اللّه عنها: يا أُمّ المؤمنين، ما أكثرُ دعاء رسول اللّه ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالت: كان أكثرُ دعائه: ((**يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلْبي على دِينكَ**)) .

[الإمام أحمد / ٢٦٧٢١والترمذي/ ٣٥٢٢]

وانظر إلى سيدنا يوسف ﷺ كيف كان الْتِجاؤُه إلى الله تعالى في دعوته أن يتوفاه الله مسلماً وأن يلحقه الله تعالى بالصالحين، قال كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف/ ١٠١] .

الملحق رقم (٨) في رد شبهات إنكار حجية أحاديث الآحاد

المقصودُ بأحاديث الآحاد هنا الأحاديثُ الصحيحة التي رواها الثقات وإن تعدد رُواتُها، ما لم تبلغ درجة المتواتر .

والمتواتر الذي يرويه العدد الكبير الذي لا يُتَصَوَّرُ إمكان اتفاقهم على الكذب كالأخبار التي وصلتنا أنه ﷺ هاجر إلى المدينة، وأنَّ فَرْضَ الصبح ركعتان، وفرضَ العصر أربع، وأن الروم كانوا يحكمون بلاد الشام قبل الإسلام، وأنه كان لهذه الأمة دولة عظيمة يحكمها هارون الرشيد عاصمتها بغداد، ونحو ذلك .

وقد شاع في الناس فتنة التشكيك بالدين عندما يشككون بالسنة بأساليب مختلفة [٧٠] منها تحريف ما ذكره أهل العلم من التفريق بين المتواتر والآحاد، فإذا أرادوا التشكيك بأمر من أمور الدين قالوا: هذا الأمر مستنده حديث آحاد، وزعموا أن العلماء لا يعتمدون على أحاديث الآحاد وهذه مغالطة ظاهرٌ زيفُها عند المبتدئين في طلب العلم .

نعم العلماء فرّقوا بين المتواتر والآحاد مع اعتمادهم على حديث الآحاد واحتجاجهم به في الجوانب العلمية والعملية، في العقائد والمعاملات والعبادات .

أما تفريقهم بينهما فيظهر فيما يلي:

لقد قرر أهل العلم أن من أنكر ما تواتر عن النبي ﷺ يكون كافراً؛ لأن إنكاره هذا تكذيب للنبي ﷺ؛ لأن المتواتر يفيد العلم القطعي كما يظهر من أمثلة المتواتر السابقة .

---

(٧٠) وقد تأثر بهذه الفتنة كثير من أبناء المسلمين البعيدين عن التفقه في الدين، وعن معرفة خصائص نقل السنة التي تتميز بها أمتنا، مع أنَّ هذه الخصائص تعتبر من مفاخرها .

يطرح عليهم المشككون أحاديث صحيحة مُشْكِلَةً على بعض الناس، ولكنها لا تُشكل على أهل العلم، يطرحونها على العامة ليشككوهم بالسنة .

ومن المفيد أن يعلم المسلم أنه يوجد في أمتنا علم من علوم السنة، هو **علم مختلف الحديث** للجمع بين الأحاديث التي ظاهرها فيه اختلاف أو إشكال، وأول من ألف في هذا العلم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كتابه **اختلاف الحديث** .

أما أحاديث الآحاد الصحيحة فإنها مع وجوب قبولها وتصديقها والعمل بها فإن أهل العلم لا يكفرون من أنكر ثبوتها وصحةَ نَقْلِها عن النبيِّ ﷺ وإن كان آثماً عاصياً في إنكاره؛ حيث تكلم بجهله وأنكر ما لا يدركه .

ومن أنكر أخبار الثقات فهو بعيد عن التصور الصحيح، وهو متناقض مع نفسه في واقع حياته .

إنَّ هذا المنكِر في حياته العملية يُصَدِّقُ أخبار الثقات ويعمل بها، ولننظر إلى هذا المنكِر إذا ذهب إلى تاجر في حانوته ليشتري سلعةً، هل يصدقه بأنها ملكه، أم يحتاج إلى خبر متواتر يثبت أنها ملكه؟ وإذا شك في مثل هذا الأمر فشهد ممن ثبتت عدالتهم وأمانتهم رجل أو رجلان بذلك هل يصدق، أم يحتاج إلى خبر متواتر؟ .

إنَّ أدلة القرآن والسنة تأمرنا بالتثبت من أخبار الفاسقين .

قال اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبأ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [الحجرات / ٦] .

بخلاف أخبار الثقات، التي أُمِرْنا باعتمادها وبالعمل بها، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ يقبلونها ويعملون بها، وأخبار قبولهم لها وعملهم بها مشهورة متواترة .

واللهُ سبحانه وتعالى علمنا الاعتماد على أخبار الثقات في كتابه القويم، قال عز وجل: ﴿ **وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ .... مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ** ﴾ [البقرة / ٢٨٢] .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ** ﴾ [الطلاق / ٢] .

ماذا يقول المشككون؟ هل يقبلون شهادة عدلين ممن يثقون بهم أم يحتاجون إلى نقلٍ متواتر؟ .

ماذا يفعل النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد تبليغ الدعوة، أو أراد إيصال أمر إلى من كان بعيداً عنه، أيرسل إليه ثقةً أم يرسل إليه أناساً كثيرين وفي أوقات مختلفة ليتحقق شرط التواتر .

لقد سمع الشافعيُّ – كما قال في الأم ٥/ ٦٢ الإمامَ مالكاً يحدث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **لاَ يَخْطُبُ أَحَدُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ** » فهل يقبله ويعمل به ويحكم بمقتضاه أم يرفضه لأنه لم يتواتر ؟ .

وإذا رأيت مِنْ أهل العلم مَنْ يربط العقائد بالمتواتر فإنَّ مراده العقائد التي يُحْكَم على منكرها بالكفر؛ فمن أنكر عذاب القبر – البرزخ – بالكلية كفر لأنه منكر للمتواتر، فيكون مكذباً لله تعالى ولرسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ **[غافر/ ٤٥و٤٦]** .

ومن أنكر أن يكون عدمُ الاستنْزاهِ من البول والنميمةُ من أسباب عذاب القبر – البرزخ – فلا يكفر وإن كان عاصياً بذلك الإنكارِ، فمعصيته لأنه أنكر بجهله ما لا يجوز إنكاره، وعدمُ كفره لأنه لم يرتكب مكفراً، إلا إذا أنكر ذلك مع إقراره أنَّه عليه الصلاة والسلام أخبر بذلك فإنه يكفر؛ لأنه يكون مكذباً للنبي ﷺ .

والحديث الوارد في هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: « **أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ** » **[البخاري / ٢١٢ومسلم / ٢٩٢]** .

الملحق رقم (٩) في التحذير من تكفير المسلم لأخيه

لا شك أن من أنكر جانباً من الجوانب الإيمانية التي يعرفها عامَّةُ المسلمين وعلماؤُهم، كإنكار نبوَّةِ نَبِيٍّ ممن ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم، أو سبَّ الله تعالى أو نبيّاً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو ارتكب مكفراً من المكفرات التي أجمع علماء المسلمين عليها فهو كافر ولا خيار لمسلم في تكفيره .

ولكنَّ جانباً من أقبح جوانب الانحراف عن الصراط المستقيم قد وُجد في الأمة وهو تكفير المسلم لأخيه .

ومن أقبح الفتن الشنيعة التي ظهرت في عصرنا ما جدد به بعض أبناء أمتنا فتنةَ الخوارج في تكفيرهم للمسلمين اعتماداً على شبهاتٍ قامت في أذهانهم، وأهواءٍ ملكت قلوبهم، وعواطفَ غلبت على عقولهم وتفكيرهم .

وأهلُ الحق الذين تمسكوا بسنة النبي ﷺ وبما كان عليه الصحابة ﷺ والتابعون والأئمة المجتهدون لا يعتمدون على الشبهات ولا تغلبهم الأهواء والعواطف فلا يكفرون أحداً ولا يتهمون مسلماً بكفر إلا إذا قام الدليل القطعي على كفره .

ومما يعتمدون عليه من الأسس العلمية أنهم يردون معاني الأدلة المشتبهة إلى معاني الأدلة المحكمة، مستنيرين بعلم وفهم من سبقهم من الراسخين في العلم .

وهذا التكفير قد حذر منه النبي ﷺ أشدَّ التحذير في أحاديث كثيرة منها :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ « **أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ** » **[البخاري / ٥٧٥٣ ومسلم / ٦٠]**

وعن ثابت بن الضَّحَّاك ﷺ قال: قال النبي ﷺ : « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ مِلَّةِ الإِسْلاَمِ فَهْوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهْوَ كَقَتْلِهِ** » **[البخاري / ٥٧٠٠]** .

ومن القواعد التي يعتمدها أهل الحق في هذا الأمر :

١- **عدم تكفير المسلم بارتكاب الكبائر** وإن وصفت تلك الكبائر في الأحاديث بأنها كفر كحديث: « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** » **[البخاري / ٤٨ ومسلم / ٦٤]** .

فمن قاتل أخاه ظلماً وبغياً قتالاً غير مشروع ولم يستحل ذلك فقد أثمَ وارتكب جريمة

من أبشع الجرائم ولكن الحديث السابق وُصفت فيه هذه المعصية بأنها كفر، وكذلك وصفت في الحديث التالي: « **لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** ».

[البخاري / ١٢١ومسلم / ٦٥]

ولكنَّ أهل الحق لا يكفرون من يرتكب هذه المعصية، ويَحملون الكفر في هذه الأحاديث على كفر النعمة، أو على الاتصاف بصفات الكفار، لأنه قد قامت عندهم الأدلة على عدم كفر المقاتلين لإخوانهم وإن كان هؤلاء المقاتلون من البغاة الظالمين؛ ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [**الحجرات/ ٩و١٠**] فقد وصف الله تعالى الطائفتين المتقاتلتين بأنهما من المؤمنين مع وجود البغي من إحداهما على الأخرى .

وقد ذكر ابنُ عبد البر في التمهيد ٤ / ٢٣٦ و٢٣٧ أنه صح عنه ﷺ أنه قال: « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** » وقال: « **لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ** » وقال: « **لاَ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ** » وقال: « **لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** » إلى آثار مثل هذه .

وذكر أنه لا يُخرِج بها العلماءُ المؤمنَ من الإسلام، وإن كان بفعل ذلك فاسقاً عندهم، قالوا ومعنى قوله: **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** أنه ليس بكفر يخرج عن الملة، وكذلك كلُّ ما ورد من تكفير من ذكرنا ممن يضرب بعضهم رقاب بعض ونحوِ ذلك، ثم روى ابن عبد البر ما يدل على أنَّ ظلم الحاكم وحكمه بغير ما أنزل الله لا يخرجه عن الملة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **كُفْرٌ دُوْنَ كُفْرٍ** [**الحاكم/ ٣٢١٩ وصححه وأقره الذهبي**] .

ثم ذكر في رواية أخرى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **لَيْسَ بالكفْرِ الذي تَذْهبونَ إليه، إنهُ لَيسَ بكفرٍ يَنْقُلُ عنِ الملَّة** ثم قرأ: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [**وأخرجه الحاكم / ٣٢١٩ وصححه وأقره الذهبي**] .

ثم قال ابن عبد البر: وقالوا يحتمل قوله ﷺ : « **لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ** » يريد مستكمل الإيمان لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وكذلك السارق وشارب الخمر ومن ذكر معهم .

وعلى نحو ذلك تأولوا قول عمر بن الخطاب ﷺ : **لا حَظَّ في الإسلامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ**، [٧١] قالوا أراد أنه لا كبير حظ له، وما أشبهه وجعلوه كحديث: « **ليسَ المسكينُ بالطوَّافِ عليكم** » يريد ليس هو المسكين حقاً لأن هناك من هو أشد مسكنة منه وهو الذي لا يَسْأَلُ ونحو هذا اهـ [التمهيد ٤/ ٢٣٦ و٢٣٧] .

وقال ابن عبد البر في موضع آخر: وقد ضلت جماعة من أهل البدع في هذا الباب فاحتجوا بهذه الآثار ومثلها في تكفير المذنبين، واحتجوا من كتاب الله بآيات ليست على ظاهرها مثل قوله عز وجل: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة/ ٤٤] وقوله: ﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الحجرات/ ٢] ونحو هذا .

ثمَّ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ قال: **ليس بكفر ينقل عن الملة ولكنه كفر دون كفر** .

ثمَّ قال ابن عبد البر: والحجةُ عليهم قولُ الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء/ ٤٨] ومعلوم أن هذا بعد الموت لمن لم يتب؛ لأن الشرك ممن تاب منه قَبْلَ الموت وانتهى عنه غفر له كما تغفر الذنوب كلها بالتوبة جميعاً قال الله عز وجل: ﴿ **قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال/ ٣٨] اهـ .

[انظر التمهيد جزء ١٧ – صفحة ١٦]

٢- **أن المسلم إذا عمل عملاً يَحْتَمِلُ الكفر ويَحْتَمِلُ غيرَ الكفر حُمِل على أخف الاحتمالات** وقُبِلَ تفسيرُه هو لهذا العمل، وللدافعِ الذي دفعه إليه، ولا تجوز المبادرة إلى الحكم عليه بالكفر بعمله الذي يحتمل الكفر وغيره، وإن غلب على الظن أنه قد فعله كفراً وارتداداً عن دينه .

ونستضيء في تقرير هذه القاعدة ببعض كلام العلماء وكثير منهم من الراسخين في العلم .

قال في الأم: قيل للشافعي: أرأيت المسلم يكتب إلى المشركين من أهل الحرب بأن

---

(٧١) عن هشام بن عروة عن أبيه « **أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي طُعِنَ فِيهَا فَأَيْقَظَ عُمَرَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ فَقَالَ عُمَرُ نَعَمْ وَلاَ حَظَّ فِي الإِسْلاَمِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ، فَصَلَّى عُمَرُ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا** » [الموطأ / ٨٢] .

المسلمين يريدون غزوهم أو بالعورة من عوراتهم هل يُحل ذلك دمه ويكون في ذلك دلالة على ممالأة المشركين؟

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام إلا أن يَقْتُلَ، أو يَزْنِيَ بعد إحصان، أو يكفر كفراً بيّناً بعد إيمان، ثم يَثْبُتَ على الكفر، وليس الدلالةُ على عورة مسلم ولا تأييدُ كافر ...... بكفرٍ بَيِّنٍ .

فقيل للشافعي: أقلت هذا خبراً أم قياساً؟ قال: قلته بما لا يسع مسلماً عَلِمَهُ عندي أن يخالفه، بالسنة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب .

فقيل للشافعي فاذكر السنة فيه، فذكر الشافعي حديث حاطب بن أبي بلتعة ﷺ الذي كتب إلى المشركين يخبرهم بخروج رسول الله ﷺ بجيشه لفتح مكة وأنزل الله تعالى في شأنه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ....** ﴾ [الممتحنة/ ١] وعندما سأله النبي ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ أخبره أنَّه أراد أن يتخذ عند قريش يداً يحمي بها قرابته، وأنه ما فعل ذلك شكاً في دينه، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، وذكر الشافعي أن النبي ﷺ صدقه.

ثم قال الشافعي رحمه الله تعالى:

في هذا الحديث – مع ما وصفنا لك – طرحُ الحكم باستعمال الظنون، لأنه لما كان الكتاب يَحْتَمِلُ أن يكون ما قال حاطبٌ كما قال من أنه لم يفعله شاكاً في الإسلام وأنه فعله ليمنع أهله، ويَحْتَمِلُ أن يكون زلةً لا رغبة عن الإسلام، واحتمل المعنى الأقبحَ — وهو الكفر – كان القولُ قولَه فيما احتَمَل فعلُه، وحَكَمَ رسولُ الله ﷺ فيه بأن لم يقتله .

ثم ذكر الشافعي رحمه الله تعالى شدَّةَ قُبح ما فعله حاطب ﷺ وأنه لا أحدَ أتى في مثل هذا الأمر أعظمَ – في الظاهر – مما فعله حاطب (٧٢) لعظمة أمر رسول الله ﷺ

---

(٧٢) وإذا قال الشافعي ذلك فيما فعله حاطب ﷺ فإني أقول فيما يفعله بعض المجرمين في زماننا: لا أعرف ذنباً يرتكبه مسلم في هذا العصر أعظمَ مما فعله ويفعله بعض المسلمين من مساعدة أعداء الأمة الإسلامية في حربهم لأمتنا وغزوهم لبلاد المسلمين، ومع هذا لا يجوز لنا أن نُكَفِّرَ هؤلاء الذين يخونون اللهَ ورسولَه والأمةَ، وليس ذلك شفقةً على هؤلاء المجرمين الخائنين، ولكنَّ ذلك شفقةٌ على أنفسنا؛ لنكون سالمين من الجرأة على الفتوى المجانبة للصواب التي تحكمها العواطف؛ فالفتوى توقيع عن الله تعالى يُسأل عنها العبد يوم الحسرة، ومن أفتى باجتهاده وهو غير أهل للاجتهاد أثم وأساء الأدب مع الله تعالى .

ونذكر في هذا ما رواه الحسن بن علي عن أبيه رضي الله عنهما أنه سئل عن الخوارج الذين

ثم ذكر أنه إذا حدث مثلُ هذا بعد رسول الله ﷺ وادَّعى فاعلُ ذلك مثلَ ما ادعاه حاطب ﷺ قُبِلَ منه، وكان قبولُه أولى لأن شأن غيره ﷺ أقلُّ من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، اهـ باختصار [الأم ٤ / ٢٦٣ و٢٦٥ طبع دار الفكر].

وقال في البحر الرائق: وفي جامع الفصولين روى الطحاوي عن أصحابنا:

لا يُخرِج الرجلَ من الإيمان إلا جحودُ ما أدخله فيه، ثم ما تُيُقِّنَ أنه ردة يحكم بها، وما يُشك أنه ردة لا يحكم بها، إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك .

وفي الخلاصة وغيرها؛ **إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنع التكفير فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير تحسيناً للظن بالمسلم .**

وفي التتارخانية: **لا يكفر بالمحتمِل لأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية ومع الاحتمال لا نهاية** اهـ [البحر ٥ / ١٣٤].

ثم قال صاحب البحر: **والذي تحرر أنه لا يُفْتَى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف** اهـ [البحر ٥ / ١٣٥] .

وقال الذهبي: رأيت للأشعري كلمة أعجبتني وهي ثابتة رواها البيهقي عن زاهر بن أحمد السرخسي قال: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته،

يحاربونه: أكفارٌ هم؟ قال: مِنَ الكفر فَرُّوا، قيل: فمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل: فما هم؟ قال قوم أصابتهم فتنة فعَمُوا فيها وصَمُّوا .
[مصنف عبد الرزاق ١٠ / ١٥٠]

وإذا ظنَّ أحد بأن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ **[المائدة/٥١]** يقتضي أنهم صاروا كفاراً فإنَّ هذا الظن غيرُ صحيح لأنَّ التولي نوعان:

الأول: من يتولاهم في دينهم، وهذا يجعله منهم كافراً لمشاركته لهم في الكفر.

الثاني: من يتولاهم في معونته لهم على الظلم، وهذا يجعله مثلهم في المعصية .

قال ابن الجوزي في تفسيره: قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ فيه قولان:

أحدهما: من يتولهم في الدين فإنه منهم في الكفر .

والثاني: من يتولهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر، اهـ **[زاد المسير ٢ / ٣٧٨]**

وقال الألوسي: وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ أيْ من جملتهم، وحكمه حكمهم، وهو مُخْرَجٌ مَخْرَجَ التشديد والمبالغة في الزجر؛ لأنه لو كان المتولي منهم حقيقةً لكان كافراً، وليس بمقصود اهـ [روح المعاني ٦ / ١٥٧] .

فقال: **اشْهَدْ عليَّ أني لا أكفر أحداً من أهل القبلة،** لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، قلت: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: **أنا لا أكفر أحداً من الأمة،** ويقول: قال النبي ﷺ: « **لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** » (٧٣) فَمَنْ لازَمَ الصلوات بوضوء فهو مسلم. [سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٨]

وقد ذهب أهل العلم إلى أبعد من هذا فقالوا: لو فعل ذمي مثل فعل حاطب رضي الله عنه لم يكن ذلك نقضاً لعهده، قال السرخسي في المبسوط عن الذمي: **فإن صار ذمة ثم وقفتَ منه على أنه يُخْبِرُ المشركين بعورة المسلمين ويَقْرِي عيونَهُم لم يكن هذا منه نقضاً للعهد، ولكن يعاقب .**

[المبسوط ١٠/ ٨٥]

وقال الشافعي ضِمْنَ بحثٍ قرر فيه أنه لا يجوز أن يُحكم على إنسان إلا بما يُظهر: **وفي جميع ما وصفت دليلٌ على أن حراماً على حاكم أن يقضيَ أبداً على أحد من عباد الله إلا بأحسنِ ما يُظهر وأخَفِّهِ على المحكوم عليه وإن احتمل ما يُظْهِرُ أحسنَه غيرَ أحسنِه .**

ثم قال: **فمن حكم على الناس بخلاف ما ظهر عليهم – استدلالاً على أن ما أظهروا يَحتملُ غيرَ أحسنه بدلالة منهم أو غير دلالة لم يسلم عندي من خلاف التنْزيل والسنة اهـ .**

[الأم ٧ / ٢٥٠ و٢٥١ طبع دار المعرفة و٧/ ٣١١ و٣١٢ طبع دار الفكر]

٣ – أنَّه لا يحكم في الأمور التي قد تقتضي الكفر إذا صدرت من مسلم إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، فالذي نطق بكلمة الكفر بإكراهٍ أو سبقِ لسانٍ مثلاً لا يُحكم بكفره، لوجود مانع وعدم تحقق الشروط .

ويرتبط بما تقدم أنَّ علماء أهل السنة قرروا أنه لا يجوز الخروج على الحاكم بارتكابه لكبائر الذنوب، ولا يُحكم عليه بالكفر إلا إذا كفر كفراً واضحاً ظاهراً لا خلاف فيه بين أهل العلم

.

واستدلوا بحديث الصحيحين عن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو مريض فقلنا: حدثنا – أصلحك الله – بحديث ينفع الله به، سمعتَه من رسول الله ﷺ فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعَنا على السمع والطاعة في مَنْشَطنا ومَكْرَهنا وعسرنا ويسرنا وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قَالَ:

« **إلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ** » [البخاري / ٦٦٤٧ومسلم / ١٧٠٩] .

---

(٧٣) [الإمام أحمد ٥ / ٢٧٦، والدارمي ١ / ١٦٨، وابن ماجه / ٢٧٧]

قال في فتح الباري: قوله (**إلا أن تروا كفراً بَواحاً**) يريد ظاهراً بادياً .

قوله (**عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**) أيْ نصُّ آيةٍ، أو خبرٌ صحيحٌ، معناه واضحٌ، لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل . اهـ

الملحق رقم (١٠)

وساوس الكفر لا تتنافى مع الإيمان ولا يؤاخذ بها العبد

لقد رأيت كثيراً من الشباب الطيبين ممن نشأ في طاعة الله تعالى، وممن وفقهم الله تعالى لكثير من الأعمال والأحوال الصالحة، يعيشون في حالة صعبة من القلق والاضطراب، والحيرة والرعب مما يجدونه أحياناً في نفوسهم من خواطر كُفْرِيَّةٍ قبيحةٍ يجدونها في نفوسهم، وتتكرر هذه الخواطر، وتتنوع، ويتزايد في نفوسهم الألم والاضطراب والرعب، ويترك في حياتهم وسلوكهم أحوالاً سيئةً من السلوك، تقصيراً في الدراسة أو في العمل، وعلاقاتٍ غيرَ حسنة مع الأهل وفي المجتمع، يرافق ذلك وسوسة ترتبط بالخوف من الموت على غير الإيمان .

وهذه قضية يراها الشخصُ الواقعُ فيها من أصعب القضايا، ومن أكبر أسباب الحزن والأسى، ولكنه إذا استضاء بضياء العلم أدرك أن هذه القضية ليست معضلةً ولا خطيرة، وخطبُها يسيرٌ، إذا استضاء عقله وقلبه بضياء **الأمور العلمية التالية**:

أولاً: أن هذه القضية حلها سهل، وأهم جانب في علاجها هو الفهم والمعرفة، وأن كثيراً من الإخوة تخلصوا من هذه المشكلة عندما عرفوا هذه النقاط العلمية .

ثانياً: أنَّ ما يجده المسلم من هذه الخواطر ليس منه، وإنما هي بضاعةُ ووساوسُ الشيطان الذي ليس له قدرة ولا سلطان على الإنسان، وأن أكبر ما يستطيع فعله هو الوسوسة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحبُّ إلي من أن أتكلم به، قال: فقال النبي ﷺ : « **اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ** » .

[الإمام أحمد/ ٢٠٩٧ وابن حبان/ ٦١٨٨ وأبو داود/ ٥١١٢]

ثالثاً: أنَّ هذه الوسوسة لا يحاسب عليها المسلم؛ لحديث: « **إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا** » **[الإمام أحمد / ٩٠٩٧ والبخاري /٦٢٨٧ ومسلم /١٢٧]** .

رابعاً: أنَّ هذه الوساوس لا تحصل في الغالب إلا مع أناس طيبين فيهم خير وصلاح؛ فالسارق المحترف للسرقة الخبير بشؤونها لا يدنو من بيوت الفقراء، بل يهتم بالسرقة من بيوت الأغنياء .

يريد الشيطان من وساوسه لهؤلاء الطيبين أن يعكر صفاءهم ويشغلهم عن الجوانب المهمة التي تنفعهم في آخرتهم ودنياهم، أما أهل الشرِّ والفساد فإنه لا حاجة له بأن يَشْغَلَهم؛ لأنهم يسيرون في حياتهم بما يرضاه منهم .

عن أبي هريرة ﵁ قال جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: « **وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ** »؟ قالوا: نعم، قال: « **ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ** » [الإمام أحمد/ ٩٦٩٢ومسلم/ ١٣٢]

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، فقال: « **تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ** » (٧٤) [مسلم/ ١٣٣] .

وقد نقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد، ومعنى الحديث أنَّ سبب الوسوسة محضُ الإيمان أو الوسوسةُ علامة محض الإيمان [انظر شرح مسلم للنووي ٢/ ١٥٤]

خاتمة:

إن ما ذُكِرَ في هذا الكتاب يحتوي بفضل الله تعالى على أهم ما يحتاج إليه المسلم المعاصر في العقيدة الإسلامية، حيث تجعله هذه المعلومات على بصيرة في دينه، وتحميه إن شاء الله تعالى من الزيغ ومضلات الفتن، ولكن هذه المعلومات أساس يُبْنَى دين المسلم، بتنمية شعب الإيمان القلبية كما وضَّحْتُ ذلك في الملحق الخامس من هذا الكتاب؛ فلا بد للمسلم من الاهتمام والحرص على هذه الشعب والسعي إلى تحصيلها .

ومن الأسباب التي تعين العبد على تحصيل هذا الخير أن يتفقد إيمانه ويزنه .

ويكون هذا الوزن بما ذُكِرَ في القرآن والسنة من الأحوال والأعمال التي أمر الله تعالى بها ومدحها، أو نهى الله عنها وذم أهلها كما تقدم في الفصل الثالث .

---

(٧٤) محض الإيمان وصريح الإيمان هو الإيمان الخالص الذي لا يشوبه شيء .

ومن أهم ما أُذَكِّرُ به نفسي وإخواني في هذا أن نتذكر من جعلهم الله تعالى قدوتنا، رسولَ الله ﷺ والسابقين الأولين ﷺ في صفاتهم الطيبة وأحوالهم الصالحة، وأخلاقهم العظيمة، التي تدل على كمال إيمانهم، قال عليه الصلاة والسلام: « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً** » [الإمام أحمد / ١٠٨٢٩ وأبو داود / ٤٦٨٢]

وإنَّ مِنْ أعظمِ ما نحتاجه من هذه الأخلاق خُلُقَيْن:

الْخُلُقُ الأول: خلقُ الخشية من الله تعالى والخوفِ من سوء الحساب؛ فقد كثر فينا مرض الأمن من عذاب الله تعالى وكأنَّ الواحد منا قد تجاوز الصراط ووصل إلى الجنة بسلام، وهذا الأمنُ مؤشر يدل على خراب القلب وعلى بُعده عن صفات أولي الألباب الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، وقد كان رسول الله ﷺ أعظم الناس خشية لله عز وجل؛ لأنه كان أعرفَ الناس بالله سبحانه وتعالى .

قال رسول الله ﷺ: « **أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ** » [مسلم / ١١٠٨] وقال أيضاً: « **فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً** » [البخاري/ ٥٧٥٠ ومسلم / ٢٣٥٦]

والْخُلُقُ الثاني: سلامة القلب من الشحناء والبغضاء المنافيين لأنوار الإيمان؛ فقد قال رسول الله ﷺ « **لا تَدْخُلُونَ الْجَنّةَ حَتّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتّى تَحَابّوا** » [مسلم /٥٤] .

ومن أجل سلامة الإيمان حذر النبي ﷺ المؤمنين من مكائد الشيطان التي تسبب الشحناء، عن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ** » [مسلم / ٢٨١٢] .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنّ النبيّ ﷺ قال: « **إِيّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ** »

[رواه الترمذي/ ٢٥٠٨ وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ ومعنى قوله: وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ، إِنَمّا يَعْنِي الْعَدَاوَةَ وَالبَغْضاءَ، وَقَوْلُهُ الْحَالِقَةُ، يقول:إِنّهَا تَحْلِقُ الدّينَ] .

وبهذه التذكرة يكون ختام هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى أن يتقبله وأن يُحَقِّقَ فيه ما أرجوه من الأنوار العلمية والقلبية لمن يدرسه أو يطالع فيه، وأن يرزقني الله تعالى وإياهم أن يتوفانا مسلمين وأن يلحقنا بالصالحين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والحمد لله رب العالمين .